شرح مقصورة ابن دريد

في فنون الشعر والحكمة والموعظة والأدب والغزل

تأليف

أبي بكر بن الحسن بن دريد الأزدي
(ت ٣٢١ هـ)

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م

٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران - مدينة نصر

القاهرة - ت: ٢٦١٠١٦٤

رقم الايداع	٢٠٠٣ / ٢٣٣٠
I.S.B.N الترقيم الدولي	977 - 344 - 062 - 1

التعريف بالامام ابن دريد

نسـبه السامى [١]

هو الامام أبو بكر محمد بن الحسين (٢) بن دريد بن عتاهية بن حنتم بن حمامى ابن واسع ابن (كذا) وهو ابن سلمة بن حنتم بن حاضر بن حنتم بن ظالم بن أسد بن عدى بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهير ويقال زهران بن كعب بن الحارث بن عبد الله بن مالك بن نضر بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان . فهو عربى الأرومة ، شريف النسب .

مولده المبارك ووفاته

ولد بالبصرة فى عصر العلم الذهبى « عصر هارون وولده المأمون » سنة ٢٢٣ هجرية . وتوفى ببغداد سنة ٣٢١ هـ . وشيعه جلة من المبرزين فى العلم آسفين على فراق علم العلم والأدب ، رغم حقد من لم يبلغوا فيهما شأوه .

نبوغه بين طبقات عصره

كان العلامة ابن دريد إمام عصره فى اللغة والأدب والنحو والصرف والشعر الفائق ، من مشاهير علماء الطبقة الرابعة الذين نبغوا فى بدء عهد الدولة العباسية المبتدأة بخلافة أبى العباس « السفاح » الذى بويع له فى سنة ١٣٢ هـ وهو آخر عهد بنى أمية ، فقضى السفاح على البقية الباقية منهم ، ولذا سمى بالسفاح ولم ينج منه إلا عبد الرحمن الداخل الذى فر إلى الأندلس وأسس

---

(١) ملخصا من بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى ، وتاريخ آداب اللغة العربية للمرصفى ، وجورجى زيدان ، وغيرهم من مشاهير المؤرخين .

(٢) هكذا فى بغية الوعاة وطبقات المؤرخين لكن صحح الأستاذ الأديب مصطفى السقا أن اسم أبيه الحسن لا الحسين فأثبتنا ماصححه فى الديباجة .

بها دولة حكمت ٢٥٠ سنة ، ثم توفى السفاح سنة ١٣٦ هـ فبويع لأخيه أبى جعفر المنصور سنة ١٣٧ هـ .

وفى عصره وبعلو همته وحسن ثقافته علا شأن اللغة العربية وأخصبت رياضها ، وأينعت ثمارها ، وتفتحت براعم وردها ، وباهت علماء الدنيا بجهابذتها، فتكونت أربع طبقات علمية ، إليها يرجع الفضل فى نشر معارف الدين الحنيف ، وتحقيق سمو بلاغة القرآن الشريف ، ورفع منار اللغة العربية إلى حد مشرف لدى نصرائها وخصومها ،

أجل بنوابغ هذه الطبقات الأربع رفلت اللغة العربية فى أبهى ثيابها ، وأفخر حليها ، ولا سيما فى عصر الخليفتين الجليلين « هرون الرشيد وولده عبد الله المأمون » من سنة ١٧٠ — ٢١٧ هـ . فقد كانت لهما الأيادى البيض فى تدرج العلوم العقلية واللغة العربية إلى حد الكمال .

ذلك بفضل ما كانا يهبانه رجال العلم من عظيم الإكبار ، ونهاية الاعتبار ، وحفظ المقدار ، مما جعل الطبقات الأربع ترتع فى هذا الوادى المخصب ، المترعرع بالهطل الهنىء .

الطبقات الأربع ومن أخيرتها ابن دريد

١ — طبقة الفقهاء : وهم الأئمة المجتهدون أصحاب المذاهب المدونة ، أولهم سيدنا :

مالك بن أنس : عالم المدينة المولود فى سنة ٩٣ هـ المتوفى بها فى سنة ١٧٩ هـ ينتهى نسبه إلى قحطان .

أبو حنيفة النعمان : هو ابن ثابت المولود فى سنة ٨٠ هـ المتوفى ببغداد سنة ١٥٠ هـ يكنى بالإمام الأعظم .

محمد بن إدريس الشافعى : يجتمع مع النبى صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف ولد بغزة الشام بفلسطين سنة ١٥٠ هـ وتوفى بمصر سنة ٢٠٤ هـ ودفن بها

أحمد بن محمد بن حنبل : حجة أهل الحديث أخذ عنه ببغداد البخارى ومسلم ، ولد سنة ١٦٤ هـ وتوفى ببغداد سنة ٢٤١ هـ .

٢ — طبقة المحدثين : وهم الأئمة الثقات الذين اشتغلوا بتدوين الحديث وتصحيح روايته ونقله ، أولهم سيدنا مالك بن أنس جامع الموطأ ، وقد أدخله البخارى فى صحيحه لصحة روايته كلها ، ومنهم أصحاب الكتب الستة المجمع على صحتها بين أهل الحديث ، وهم فى علو الدرجة على هذا الترتيب:

البخارى محمد بن إسماعيل : وهو أبو عبد الله ، ولد فى شوال سنة ١٩٤ هـ وتوفى فى غرة شوال سنة ٢٥٦ هـ

مسلم بن الحجاج القشيرى : وهو أبو الحسين ، ولد فى سنة ٢٠٤ هـ وتوفى فى سنة ٢١١ هـ .

الترمذى محمد بن عيسى : وهو أبو عيسى ، ولد فى سنة ٢٠٩ هـ ، وتوفى فى سنة ٢٧٩ هـ .

أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى : ولد سنة ٢٠٢ ، وتوفى فى سنة ٢٧٤ هـ .

النسائى أحمد بن شعيب : وهو بكسر النون أبو عبد الرحمن ، ولد سنة ٢١٥ ، وتوفى فى سنة ٣٠٣ هـ .

ابن ماجه محمد بن يزيد بن ماجه : وهو أبو عبد الله ، ولد سنة ٢٠٩ وتوفى فى سنة ٢٧٣ هـ .

وبعض المؤرخين كالأستاذ المرصفى محمد حسن نائل يذكر بدل ابن ماجه الدارقطنى المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، لكن الكثير عند المحدثين الأول ، وهو المعتمد فى النقل عنهم .

٣ — طبقة المؤرخين : وتبتدىء بسيدنا عروة بن الزبير رضى الله عنهما ، المتوفى سنة ٩٣ هـ . وهو الذى قال لابنه هشام : كتبت ؟ قال : نعم ،

قال : عرضت كتابك ؟ قال : لا ، قال : لم تكتب ! وتمتد إلى العلامة الثقة محمد بن جرير الطبرى المتوفى فى سنة ٣١٠ هـ المولود سنة ٢٢٤ هـ .

— طبقة اللغويين والنحاة : وتبتدىء بأستاذ اللغة الخليل بن أحمد الفرهودى البصرى ، صاحب كتاب العين ، أول معجم ألف فى اللغة العربية ، مخترع فن العروض بمقاطعه من نغمات دق قطعتين من الخشب اليابس على قطعة من النحاس تشبه الطبل ، المتوفى فى سنة ١٧٠ هـ . واشتهر الخليل وبعد صيته بعد إمام كل إمام سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه ، وبعد أبى الأسود الدؤلى وولده . وأشهر من أخذ عن الخليل سيبويه إمام النحاة ، والنضر بن شميل النحوى اللغوى الثقة .

وأشهر مشهورى هذه الطبقة من البصريين ثلاثة :

(١) الخليل بن أحمد الفرهودى .

(٢) أبو سعيد عبد الملك بن قريب الشهير بالأصمعى ، المولود فى سنة ١٢٢ هـ المتوفى فى سنة ٢١٦ هـ .

(٣) أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدى المترجم له .

شيوخ ابن دريد وتلاميذه

من أشهر شيوخه ثلاثة : عبد الرحمن ابن أخى الأصمعى ، وأبو حاتم السجستانى ، وأبو الفضل الرياشى .

ومن أشهر تلاميذه : أبو سعيد السيرافى ، والمرزبانى ، وأبو الفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى ، وأبو على القالى صاحب كتاب الأمالى ، وابن خالويه النحوى اللغوى الثقة .

مصنفاته

منها الجمهرة فى اللغة ، والأمالى ، والمجتبى ، واشتقاق أسماء القبائل ، والملاحن والمقتبس ، والمقصور والممدود ، والوشاح ، والخيل الكبير ، والخيل الصغير ، والأنواء ، والسلاح ، وغريب القرآن ، لم يتممه ، وفعلت

وأفعلت ، وأدب الكاتب ، والمطر ، وزوار العرب ، والسرج واللجام ، وتقويم اللسان ، لم يبيض ، والمقصورة التى حلى بها تاج الممدوح بها .

أشهر مصنفاته

منها كتاب الجمهرة مرجع أهل الأدب ، أملاها بحلب تلميذه الإمام أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه ، المتوفى فى سنة ٣٧٠ هـ على جهابذة مشاهير ، منهم العلامة أحمد بن عبد الرحمن بن قابوس ، وكانت عند تلميذه أبى على القالى بمنزلة الروح للجسد ، حتى أنه أعطى فيها ثلثمائة مثقال ذهبا فأبى ! فلما اشتدت حاجته إلى الإنفاق على عياله باعها بأربعين مثقالا !!! وكتب عليها هذه الأبيات :

أنست بها عشرين عاما وبعتها ... وقد طال وجدى بعدها وحنينى
وما كان ظنى أننى سأبيعها ... ولو خلدتنى فى السجون ديونى
ولكن لعجز وافتقار وصيبة ... صغار عليهم تستهل شئونى
فقلت ولم أملك سوابق عبرتى ... مقالة مكوى الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك ... كرائم من رب بهن ضنين

فلما رأى الذى اشتراها هذه الأبيات كاد يذوب أسى وعطفا على صاحبها ، ثم أرسلها إليه ومعها أربعون مثقالا ذهبا أخرى ، فلما وصلته كان كأنما ردت إليه روحه !

الحاقدون على ابن دريد

وقد حقد عليه خلق كثير من أهل الأدب لإخراجه الجمهرة كمعجزة فى الفن ، ولا سيما وقد أملاها من حفظه فى سنة ٢٩٧ هـ ولم يستعن عليها بالنظر فى شئ من الكتب إلا فى الهمزة واللفيف ، فقال بعضهم فيه قولا هراء لينال منه ، وما هو منه بالنائل :

ابن دريد بقره وفيه عى وشره
ويدعى من حمقه وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين إلا أنه قد غيره

وقد أملى ابن دريد هذه الجمهرة عدة مرات : بفارس ، وبغداد ، والبصرة . والنسخة المعول عليها نسخة عبيد الله بن أحمد حيث كتبها من عدة نسخ وقرأها على المؤلف ، فأصبحت بهذا العمل الجليل حجة .

الشاهدون بفضله ونبوغه

قال المسعودى فى كتابه « مروج الذهب» : كان ابن دريد ببغداد ممن برع فى زماننا هذا فى الشعر ، وانتهى فى اللغة ، وقام مقام الخليل بن أحمد فيها ، وأورد أشياء فى اللغة لم توجد فى كتب المتقدمين ، وكان يذهب بالشعر كل مذهب ، فطورا يجزل ، وطورا يرق ، وشعره أكثر من أن يحصى ، ومن جيده قصيدته المشهورة (بالمقصورة الدريدية) التى يمدح بها الشاه بن ميكائيل وولديه ، وهو الأمير أبو العباس إسماعيل بن عبد الله بن ميكائيل رئيس نيسابور . أحاط فيها بأكثر المقصور ، وقد عارضه فيها جماعة من الشعراء أولها :

إما ترى رأسى حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض فى مسوده مثل اشتعال النار فى جزل الغضى

واعتنى بها خلق كثير من المتقدمين والمتأخرين فشرحوها إطنابا وإيجازا منهم العلامة بن أحمد بن خالويه اه

وقال أبو الطيب اللغوى فى مراتب النحويين : ابن دريد هو الذى انتهت إليه لغة البصريين ، كان أحفظ الناس وأوسعهم علما ، وأقدرهم على الشعر ، وما ازدحم العلم والشعر فى صدر أحد ازدحامهما فى صدر خلف

الأحمر ، وابن دريد ، وتصدر ابن دريد فى العلم ستين سنة ، وكان يقال : ابن دريد أشعر العلماء ، وأعلم العلماء اه

وقال الخطيب البغدادى : كان ابن دريد واسع الحفظ جدا ، تقرأ عليه دواوين العرب كلها أو أكثرها فيسابق إلى إتمامها وحفظها اه

وقال ابن خالويه فى شرح المقصورة : كان ببغداد عباد بن عمر بن الحليس ابن عامر بن زيد بن مذكور بن سعد بن حارث الكرمانى صاحب لغة ، وكان يطعن على ابن دريد وينقض عليه الجمهرة ، فجاء غلام لابن دريد فجلس بحذائه فى الجامع ونقض على الكرمانى جميع ما نقضه على ابن دريد فقال : اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم ، قال أبو بكر بن دريد — أعزه الله تعالى — عنت الفرس إذا حبسته بعنانه ، فان حبسته بمقوده فليس بمعن . قال الكرمانى الجاهل : أخطأ ابن دريد لأنه إن كان من عنت يجب أن يكون معنونا ، وإن كان من أعنت فيجب أن يكون معنا . وأخطأ لكذا وكذا ، فوقف شاعر على الحلقة فقال : اكتبوا :

أذللت كرمان وعرضتها ... لجحفل مثل عديد الحصى
وابن دريد غرة فيهم ... فى بحره مثلك كم غوصا
جثا على الركبة حتى إذا ... أحس نزرا قعد القرفصا
والله إن عاد إلى مثلها ... لأصفعن هامته بالعصا

فلم يلتفت إلى الكرمانى بعد ذلك اه .

وقال الزمخشرى فى كتابه ربيع الأبرار : جمع ابن دريد ثمانية أسماء فى بيت واحد فقال :

فنعم أخو الجلى ومستنبط الندى ... وهيجاء محزون ومفزع لاهث

وقال محمد بن المعلى فى اشتقاق اسم دريد فى كتاب الترقيص : أرى أن اسم دريد من قولهم رجل أدرد . والدرد : ذهاب الأسنان فصغر الاسم تصغير ترخيم .

وقال جمال الدين ابن الجوزى ملغزا فى هذه المقصورة : ما يقول سيدنا إمام أئمة الأمصار ، وصدر الأقطار ، وجامع مسانيد السير

والأخبار ، فى عروس جليت فى ساعة على بعلين ، وزفت فى ليلة إلى محلين خطباها بظهور السماح ، لا بصدور الرماح ، وملكاها بحل الصحاح ، لا بعقد النكاح ، وافترعاها فى الملا فلم يكن على أبيها ولا عليها من جناح ، وهى من المشهورات فى الأيام ، والمقصورات لا فى الخيام ، باسقة الفرع ، ثابتة الأصل ، فائزة عند النضال ، بالفضل والإفضال ، جامعة المناقب والفضائل ، ساحبة ذيل البلاغة على سحبان وائل ؟

نظم ابن دريد

ومن حسن نظمه فى وصف النرجس قوله :

عيون ما يلم بها الرقاد ... ولا يمحو محاسنها السهاد
إذا ما الليل صافحها استهلت ... وتضحك حين ينحبس السواد
لها حدق من الذهب المصفى ... صياغة من يدين له العباد
وأجفان من الدر استفادت ... ضياء مثله لا يستفاد
على قضب الزبرجد فى ذراها ... لأعين من يلاحظها مراد

وقوله أيضا وقد ناوله غلامه أبو الفوارس طاقة نرجس : ما أصنع بها اليوم ! ؟ وأنشد :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه ... فلما علاه قال للباطل ابعد

بدء المقصورة وما قيل فيه

قال فى بغية الوعاة (فائدة) ابتدأ ابن دريد مقصورته بقوله :

إما ترى رأسى حاكى لونه ... طرة صبح تحت أذيال الدجى

فاستغنى بذكر الشرط فى قوله إما وتاء الخطاب فى قوله ترى عن تقدم ذكر المخاطب لدلالة المذكور على المحذوف . وقد تكلف الكمال بن الأنبارى نظم أبيات جعلها مطلعا لها فقال :

شرد عن عينى الكرى طيف سرى ... عن أم عمرو فى غياهيب الدجى

وَٱشْتَعَلَ ٱلْمُبْيَضُّ فِى مُسْوَدِّهِ مِثْلَ ٱشْتِعَالِ النَّارِ فِى جَزْلِ الْغضَا[1]

فَكَانَ كَاللَّيْلِ الْبَهِيمِ حَلَّ فِى أَرْجَائِهِ ضَوْءُ صبَاحٍ فَٱنْجَلَى[2]

وَغَاضَ مَاءُ شِرَّتِى دَهْرٌ رَمَى خَوَاطِرَ قَلْبٍ بِتَبْرِيحِ الْجَوَى[3]

من ترين ، والخطاب لمؤنث والنون مدغمة فى ما . وحاكى : أشبه . وطرة صبح : يعنى وجه صبح ، وطرة كل شئ حافته وجانبه ، ومنه طرة الكتاب ، وهى الحاشية التى لا هدب لها ، ويقال لها كنفه أيضا . الأذيال : الأطراف واحدها ذيل ، ومنه ذيل القميص . الدجى : الظلمة وهى جمع دجية ، وهو من قولهم ليل داج أى مظلم .

(١) واشتعل : فشا وانتشر ، من قول الله عز وجل (واشتعل الرأس شيبا) . الجزل : ما غلظ من الحطب . الغضا : ضرب من الشجر له جمر يبقى طويلا ، واحده غضاة .

[المعنى] إن تبصرى تباريح شوقى إليك ، وتلهفى عليك ، مما أسرع الشيب إلى رأسى سرعة النار فى وقود يابس قابل للالتهاب ، حتى صار شعر رأسى المبيض بين الشعر المسود ، كفلق الصبح يغطى ضياؤه غسق الليل وظلامه — يعنى أن شيب الرأس المشتعل نذير الموت وأمارة الأسى وخور الأعصاب — لرقت لحالى ، وجدت بوصالى .

(٢) البهيم : الأسود ، ليل بهيم أى لا ضوء فيه إلى الصباح . وحل : نزل ، قال الله عز وجل (أو تحل قريبا من دارهم) . وأرجاؤه : أطرافه ، وواحد الأرجاء رجا ، وهى مقصورة قال الله عز وجل : (والملك على أرجائها) وأما الرجاء من الأمل فممدود . انجلى : ذهب وانكشف قال الله عز وجل : (لولا أن كتب الله عليهم الجلاء) .

(٣) وغاض : نقص من قوله تعالى : (وغيض الماء) أى نقص ، يقال غضت الماء فغاض إذا انساب فى الأرض أى غاض وذهب ، وقوله : ماء

وَآضَ رَوْضُ اللَّهْوِ يَبْسًا ذَاوِيًا مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ كَانَ مَجَّاجَ الثَّرَى (١)

شرقى : اسم لماء شبابه وقوته،والشباب لاماء له،ولكنه استعاره وأصل الشرة الحدة والنشاط ، فاستعارها ها هنا للشباب . الخواطر : الهمم وهو ما يخطر بالقلب من الفكرة وأراد بالخواطر الفطن وحدة القلب والذكاء . والتبريح : البلوغ فى المشقة إلى غايتها ، وهو من قولهم بوح بى هذا الأمر إذا بلغ به غاية الحزن . الجوى : سقم الجوف من طول المرض،وقيل تأثير الحزن فى القلب يقال جوى يجوى جوى مثل ضنى يضنى ضنى .

[المعنى] صار الشعر المسود القليل بين المبيض الكثير كالليل الأسود الذى لا ضوء فيه إذا أعقبه الصبح قضى على ظلامه وأزاله — واسوداد شعر الرأس أمارة قوة بقيت فى الشباب — وجفف ماء حياتى دهر رمانى فى صميم فؤادى بسهام حبك ، يريد رفقا بما بقى من ماء الحياة ، وعصارة الشباب ، فلا تقضى بتيهك على البقية الباقية منهما ، وقوله الخواطر الهمم : الذى يؤخذ من مراجع اللغة كالمنجد وغيره أن الهمم جمع همة . والهموم جمع هم بمعنى ماخطر بالقلب من الفكر وهو المناسب هنا .

(١) آض : رجع يقال : آض يئيض أيضا . روض اللهو : فى هذا الموضع استعارة ، لأن اللهو لا روض له ، والروض هو المكان المعشب ، وتسميته فى الأرض حقيقة ، وتسميته فى اللهو مجاز ، والروض بهذا اللفظ جمع،الواحدة روضة مثل نور ونورة وجوز وجوزة ، ويجمع أيضاً على رياض مثل صحفة وصحاف ، ويجمع أيضا على روضات مثل بيضة وبيضات ، وقوله يبساً أى يابسا . ذاوياً : ذابلا ، المجاج : الصباب من قولهم مج الغصن الماء إذا ألقاه على قشره الأعلى، ومج الرجل الماء إذا ألقاه من فيه . ومجاج الثرى أيضا مثله ، وإنما يعنى بهذا القول أيام شبابه شبهها بروضة وماء يقول آضت هذه الروضة أرضا ميتة لامنفعة فيها . الثرى : التراب الندى مقصور . وأما الثراء بالمد فالغنى والسعة .

وَٱشْتَعَلَ ٱلْمُبْيَضُّ فِى مُسْوَدِّه ... مِثْلَ ٱشْتِعَالِ النَّارِ فِى جَزْلِ الْغضَا[1]

فَكَانَ كَاللَّيْلِ الْبَهِيمِ حَلَّ فِى ... أَرْجَائِهِ ضَوْءُ صَبَاحٍ فَٱنْجَلَى[2]

وَغَاضَ مَاءَ شِرَّتِى دَهْرٌ رَمَى ... خَوَاطِرَ قَلْبٍ بِتَبْرِيحِ الْجَوَى[3]

من ترين ، والخطاب لمؤنث والنون مدغمة فى ما . وحاكى : أشبه . وطرة صبح : يعنى وجه صبح ، وطرة كل شئ حافته وجانبه ، ومنه طرة الكتاب ، وهى الحاشية التى لا هدب لها ، ويقال لها كتفه أيضا . الأذيال : الأطراف واحدها ذيل ، ومنه ذيل القميص . الدجى : الظلمة وهى جمع دجية ، وهو من قولهم ليل داج أى مظلم .

(١) واشتعل : فشا وانتشر ، من قول الله عز وجل (واشتعل الرأس شيبا) . الجزل : ما غلظ من الحطب . الغضا : ضرب من الشجر له جمر يبقى طويلا ، واحده غضاة .

[المعنى] إن تبصرى تباريح شوقى إليك ، وتلهفى عليك ، مما أسرع الشيب إلى رأسى سرعة النار فى وقود يابس قابل للالتهاب ، حتى صار شعر رأسى المبيض بين الشعر المسود ، كفلق الصبح يغطى ضياؤه غسق الليل وظلامه — يعنى أن شيب الرأس المشتعل نذير الموت وأمارة الأسى وخور الأعصاب — لرقت لحالى ، وجدت بوصالى .

(٢) البهيم : الأسود ، ليل بهيم أى لا ضوء فيه إلى الصباح . وحل : نزل ، قال الله عز وجل (أو تحل قريبا من دارهم) . وأرجاؤه : أطرافه ، وواحد الأرجاء رجا ، وهى مقصورة قال الله عز وجل : (والملك على أرجائها) وأما الرجاء من الأمل فممدود . انجلى : ذهب وانكشف قال الله عز وجل : (لولا أن كتب الله عليهم الجلاء) .

(٣) وغاض : نقص من قوله تعالى : (وغيض الماء) أى نقص ، يقال غضت الماء فغاض إذا انسياب فى الأرض أى غاض وذهب ، وقوله : ماء

وَآضَ رَوْضُ اللَّهْوِ يَبْسًا ذَاوِيًا مِنْ بَعْدِ مَاقَدْ كَانَ مَجَّاجَ الثَّرَى (١)

شرتى : اسم لماء شبابه وقوته،والشباب لاماء له،ولكنه استعاره وأصل الشرة الحدة والنشاط ، فاستعارها ها هنا للشباب . الخواطر : الهمم وهو ما يخطر بالقلب من الفكرة وأراد بالخواطر الفطن وحدة القلب والذكاء . والتبريح : البلوغ فى المشقة إلى غايتها ، وهو من قولهم بوح بى هذا الأمر إذا بلغ به غاية الحزن . الجوى : سقم الجوف من طول المرض،وقيل تأثير الحزن فى القلب يقال جوى يجوى جوى مثل ضنى يضنى ضنى .

[المعنى] صار الشعر المسود القليل بين المبيض الكثير كالليل الأسود الذى لا ضوء فيه إذا أعقبه الصبح قضى على ظلامه وأزاله — واسوداد شعر الرأس أمارة قوة بقيت فى الشباب — وجفف ماء حياتى دهر رمانى فى صميم فؤادى بسهام حبك ، يريد رفقا بما بقى من ماء الحياة ، وعصارة الشباب ، فلا تقضى بتيهك على البقية الباقية منهما ، وقوله الخواطر الهمم : الذى يؤخذ من مراجع اللغة كالمنجد وغيره أن الهمم جمع همة . والهموم جمع هم بمعنى ماخطر بالقلب من الفكر وهو المناسب هنا .

(١) آض : رجع يقال : آض يئيض أيضا . روض اللهو : فى هذا الموضع استعارة ، لأن اللهو لا روض له ، والروض هو المكان المعشب ، وتسميته فى الأرض حقيقة ، وتسميته فى اللهو مجاز ، والروض بهذا اللفظ جمع،الواحدة روضة مثل نور ونورة وجوز وجوزة ، ويجمع أيضاً على رياض مثل صحفة وصحاف ، ويجمع أيضا على روضات مثل بيضة وبيضات ، وقوله يبساً أى يابسا . ذاوياً : ذابلا ، المجاج : الصباب من قولهم مج الغصن الماء إذا ألقاه على قشره الأعلى، ومج الرجل الماء إذا ألقاه من فيه . ومجاج الثرى أيضا مثله ، وإنما يعنى بهذا القول أيام شبابه شبهها بروضة وماء يقول آضت هذه الروضة أرضا ميتة لامنفعة فيها . الثرى : التراب الندى مقصور . وأما الثراء بالمد فالغنى والسعة .

وَضَرَّمَ النَّأْيُ الْمُشِتُّ جَذْوَةً مَا تَأْتَلِي تَسْفَعُ أَثْنَاءَ الْحَشَا(١)

وَاتَّخَذَ التَّسْهِيدُ عَيْنِيَ مأْلَفًا لَمَّا جَفَا أَجْفَانَهَا طَيْفُ الْكَرَى(٢)

---

(١) ضرم : أى أشعل وأوقد . النأى : البعد يقال نأى ينأى نأياً إذا بعد قال الله عز وجل (أعرض ونأى بجانبه) وقال : (وهم ينهون عنه وينأون عنه) . المشت : المفرق يقال أشت يشت إذا فرق فهو مشت ، وشت يشت شتا إذا تفرق هو ، والقوم الأشتات المتفرقون واحدهم شت . قال الله عز وجل : (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً) أى متفرقين ، وفى الاثنين شتان مثل الزيدان . الجذوة : الجمرة العظيمة ، وقيل الجذوة القطعة من الخشب تحترق فتبقى منها بقية قال الله عز وجل (أوجذوة من النار لعلكم تصطلون) وقوله . ماتأتلى : أى ماتقصر ، وتأتلى وزنه تفتعل من قولهم ما ألوت أن أفعل كذا أى ماقصرت . قال الله عز وجل : (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة) أى لايقصر . تسفع : تحرق وقيل تسفع تؤثر من قولك سفعته النار إذا أحرقته وتركت فى جسمه آثاراً . وأثناء الحشا : يعنى مارق من البطن ، وأراد به القلب والجوف ، وقيل أثناء الحشا أى نواحى الحشا :

[المعنى] عاد جسمى الغض البض النشيط بقوة الشباب ـ وقد كان شبيها بالروضة الغناء الخضرة النضرة طيبة التربة يجرى فى قنواتها الماء العذب فيرويها وينمى مافيها ـ عوداً يابساً ذاويا ذابلا مريضا لا تماسك بين أجزائه ، وقد عده لهوه ومرحه وتحركه ، وأوقد نأيك وبعدك عنى فى هذا الهيكل ناراً تتأجج تكاد تذيب ما تلتهب فيه بين الضلوع والحشا .

(٢) التسهيد : والسهاد السهر وهو فقد النوم . مألفا أى صاحبا والمألف : هو الموضع الذى تقع فيه الألفة أى الاجتماع والصحبة مثل المحضر والمشهد فأقام المألف هنا مقام الإلف ، والإلف هو الصاحب ، والمألف هو الموضع

فَكُلُّ مَا لاَ قَيْتُهُ مُغْتَفَرٌ فِى جَنْبِ مَا أَسْأَرَهُ شَحْطُ النَّوَى (١)

لَوْلاَ بَسَ الصَّخْرَ الْأَصَمَّ بَعْضُ مَا يَلْقَاهُ قَلْبِي فَضَّ أَصْلاَدَ الصَّفَا (٢)

وقوله. جفا : أى هجر، والجفوة والجفا الهجران يقال: جفانى فلان إذا هجرنى ، والجافى أيضا فى غير هذا : الخشن . الأجفان : أغطية العيون واحدها جفن بمنزلة جفن السيف وهو غمده . الطيف : ما يراه الانسان من خيال محبوبته . الكرى : النوم .

(١) قوله . مغتفر : أى متجاوز عنه متروك ، ومنه قولهم فى الدعاء غفر الله لك . معناه تجاوز الله عنك ، وأصل الغفران التغطية ، ومنه سمى مغفر الدرع مغفراً لأنه يغطى الرأس فقول الداعى : اللهم اغفر لنا ذنوبنا : معناه اللهم غطها واسترها وقوله . أساره : أى أبقاه . والسؤر: البقية ،وفى الحديث « إذا شربتم فأسئروا » أى أبقوا بقية فى الإناء . وإنما يريد بهذا الكلام أن يهون على نفسه زمان شبابه وكبره عند اغترابه .

[المعنى] من شدة ما أصابنى من نار بعادها امتلأ رأسى بالأفكار فى شخصها المحبوب حتى اتخذ السهاد أى الأرق عينى مألفا وماوى حين هجر أجفانها طيف النوم ، فأنى يغمض لى جفن ما دام خيالها غير حاضر فى منامى فلا سهد لأحضره فى يقظتى . وكل الذى ألاقيه وأتكبده من الأرق وتعب السهاد مغتفر مستور قليل إذا قيس بما أبقاه بين جنبى شحط النوى ومر الفراق من ألم مبرح ولهيب محرق .

(٢) لابس: خالط . الأصم : الصلب . فض : كسر، وأصل الانفضاض التفرق قال الله تعالى (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها) أى تفرقوا . الأصلاد : جمع صلد وهى الحجارة الصلبة الشديدة قال عز وجل : (فتركه صلدا) . الصفا : الصخر الصلاب ، والواحدة صفاة والمذكر صفوان ،قال الله تعالى (كمثل صفوان عليه تراب) .

إِذَا ذَوَى الْغُصْنُ الرَّطِيبُ فَاعْلَمَنْ ... أَنَّ قُصَارَاهُ نَفَادٌ وَتَوَى (١)

شَجِيتُ لَا بَلْ أَجْرَضَتْنِي غُصَّةٌ ... عَنُودُهَا أَقْتَلُ لِي مِنَ الشَّجَى (٢)

إِنْ يَحْمِ عَنْ عَيْنِي الْبُكَا تَجَلُّدِي ... فَالْقَلْبُ مَوْقُوفٌ عَلَى سُبْلِ الْبُكَا (٣)

---

(١) قوله . ذوى : أى جف وذبل، يقال ذوى يذوى ذيا وذويا وفى الحديث « إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يستاك وهو صائم بعود قد ذوى » الرطيب : الناعم الرطب . قصاراه . آخر أمره ومنتهاه وغايته . النفاد : الفناء ، والذهاب ، والانقطاع ، والفراغ . التوى : بالتاء المنقوطة باثنتين من فوق هو الهلاك ، والثواء بالثاء المثلثة ممدودة الإقامة . قال الله عز وجل : (وما كنت ثاويا فى أهل مدين) أى مقيما .

[المعنى] لوحل بعض مايتحمله قلبي من لظى جواها ، وحرجفاها ، بصخر صلب صلد قوى يابس ، لتفككت أجزاؤه وتلاشت قوته . فلا عجب أن يذوى جسمى الغض الرطيب ، ويتراجع إلى التلاشى والهلاك ، كما يذوى العود الأخضر النضر بعد تكامل نموه ليصير إلى الفناء والهلاك ، فأكبر شاهد على تباريح شوقى وهيامى نحول جسمى .

(٢) شجيت : أى حزنت فالشجا الحزن ، والشجا أيضاً الغصص ، والغصص الاختناق يقال من ذلك : شجى يشجى شجا إذا غص بالشيء . أجرضتنى : أى خنقتنى غصة الموت ، والجرض هو الاختناق بالريق ، يقال شجيت بالعظم ، وغصصت باللقمة ، وشرقت بالماء ، وجرضت بالريق ، وفى المثل حال الجريض دون القريض . عنودها : معارضها وهو ماعاند منها أى ماعارض . الشجا : الحزن ويقال له الشجو أيضا يقال شجى يشجى ، وشجا يشجو شجواً ، فالأول من ذوات الياء ، والثانى من ذوات الواو .

(٣) إن يحم : إن حرف شرط ، ويحم جزم بالشرط ، وجوابه مدخول

لَوْ كَانَتِ الْاحْلَامُ نَاجَتْنِي بِمَا أَلْقَاهُ يَقْظَانَ لَأَصْمَانِي الرَّدَى[1]

الفاء فى قوله فالقلب : وقوله يحم يمنع. التجلد : التصبر. السبل : الطرق واحدها سبيل، وعنى بذلك الهوى الذى يأتى البكاء من أجله وسببه. البكا : يمد ويقصر .

[المعنى] حزنت حزن الثكلى ، وغصصت بريقى وما عاند منه فى المسيغ حتى كان وقوفه فى حلقى ، وتردده فى فمى ، أضر علىّ من الحزن الدفين . وإن منع دمع عينى تجلدى وتصبرى ومجاهدتى لجيش البكاء فالقلب الحزين الذائب شوقا وحنينا وتلهفا لا يقوى على دفع البكاء الملح الغالب .

(١) الأحلام : جمع حلم ، وهو ما يراه الانسان فى منامه قال الله عز وجل (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) . ناجتنى : أخبرتنى يقول لو كانت الأحلام أرتنى الأمر الذى رأيته فى اليقظة لهلكت عند ما أرى فى المنام . اليقظان : الذى ليس بنائم وجمعه أيقاظ . قال الله عز وجل : (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود) . لأصمانى : أى لقتلنى مكانى بلا تأخير ، والإصماء القتل دون تلبث ، والتلبث: المكث، يقال رمى فلان الصيد فأصماه أى أصاب مقتله فان لم يصب مقتله قيل رماه فأشواه ، والشواء : إخطاء المقتل قال ابن مقبل :

أرمى النحور فأشويها وتثلمنى ثلم الإناء فأغدو غير منتصر

قال الأصمعى : يقال أشواه إذا لم يصب مقتله ، وشواه بغير ألف إذا أصاب منه المقتل ، والشوى فى غير هذا الموضع اليدان والرجلان . قال امرؤ القيس :

سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا له حجبات مشرفات على الفال

والشوى أيضاً : الشىء الهين الحقير ، قال الشاعر :

وكنت إذا الأيام أحدثن هالكا أقول شوى مالم يصبن صميمى

أى هين ، ويقال : كل ذلك شوى ماسلم دينك، أى هين مالم يصب دينك ، لأن المصيبة أعظم ما تكون فى الدين ، وهى فى غير الدين صغيرة ، ومنه

مَـــنْزِلَةٌ مَا خِلْتُهَا يَرْضَى بِهَا لِنَفْسِهِ ذُو أَرَبٍ وَلَا حِجَا[1]
شَيْمُ سَحَابٍ خُلَّبٍ بَارِقُهُ وَمَوْقِفٌ بَيْنَ ارْتِجَاءٍ وَمُنَى[2]

قولهم فى الدعاء ، اللهم لاتجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، والشوى أيضاً : رذال المال قال الشاعر :

وإنك ما سليت نفساً شحيحة عن المال فى الدنيا بمثل المجاوع
أكلنا الشوى حتى إذا لم ندع شوى أشرنا إلى خيراتها بالأصابع

والشوى أيضا: جمع شواة وهى جلدة الرأس ، قال الله عز وجل (إنها لظى نزاعة للشوى) أى لجلود الرءوس وقال الأعشى :

قالت قتيـــلة ماله قد جللت شيبا شواته
أم لا أراه كما عهد ت صحا وأقصر عاذلاته

الردى : الهلاك وتصريفه ردى يردى ردى . قال الله عز وجل (واتبع هواه فتردى) : أى فتهلك .

(١) قوله . منزلة : أى درجة وجمعها منازل وقوله . ماخلتها : أى ماحسبتها ذو أرب : أى ذو عقل يقال فلان أريب أى عاقل ، الحجى : العقل أيضاً .

[المعنى] : لو أنى أشعر فى منامى بما أشعر به فى يقظتى من ألم النوى المبرح ، وانقطاع الوداد ، وبعد الأمل : لهلكت حين أيأس على وسادى ، وما نفعنى جلادى . وتلك المنزلة والدرجة التى بلغتها من ضعف القوى ، ووهن العزيمة ، بحيث لايملك الجسم تراجعه إلى ما يحميه ، أو يقويه ، لاأحسب أن عاقلا يرضى بها لنفسه ، مادام قوى الشكيمة ، سليم الوجدان .

(٢) الشيم : النظر إلى البرق خاصة ، ولا يقال شمت الرجل بمعنى نظرته ولكن يقال شمت البرق إذا نظرت إليه من أى النواحى يأتى . الخلب : الذى لا ماء فيه .

فِي كُلِّ يَوْمٍ مَنْزِلٌ مُسْتَوْبَلٌ يَشْتَفُّ مَاءَ مُهْجَتِي أَوْ مُجْتَوَى (١)
مَا خِلْتُ أَنَّ الدَّهْرَ يُثْنِينِي عَلَى ضَرَّاءَ لَا يَرْضَى بِهَا ضَبُّ الْكُدَى (٢)
أُرَمِّقُ الْعَيْشَ عَلَى بَرْضٍ فَإِنْ رُمْتُ ارْتِشَافًا رُمْتُ صَعْبَ الْمُنْتَشَى (٣)

---

(١) المنزل : الموضع الذى ينزل فيه . المستوبل : المستثقل . المجتوى : المستكره ، قوله يشتف : أى يستقصى ، والاشتفاف الاستقصاء ، يقال اشتف فلان ما فى الاناء إذا استقصاه . المهجة : النفس ، وجمعها مهج ، وقيل المهجة دم القلب ، والمجتوى المكروه ، يقال اجتويت البلاد إذا كرهتها ، وإن كانت موافقة لك ، واستوبلتها إذا لم توافقك وإن كنت غير كاره لها .

[المعنى] إن نظرى إلى ما يقربها منى وأملى فى وصلها وتدانيها كنظر الانسان إلى البرق الخاطف ، والسحاب المترقرق وسط الصحراء ، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وإن موقنى معها لأمل منقطع ، فأتسلى عنها ، ولا وصل حاصل فأتمتع ، بل كل ما عندى رجاء وأمانى ، ومنى : جمع منية كمدى جمع مدية بمعنى أمنية ، على حين أرانى كل يوم فى موضع بغيض يمتص ماء مهجتى وقلبى يقصد ماقصدته بقولى فى الشكاية :

والفكر فى المحبوب نار تلتظى والقلب وقد والضلوع الموقد
فأين تكون الهناءة مع هذا الاحتراق ؟ ! !

(٢) ما خلت : أى ما توهمت . ويثنينى : يردنى و يعطفنى ، يقال ثناه يثنيه إذا عطفه . الضراء : الصخرة الصماء وقيل الضراء الأرض المشرفة ، والضب مولع به أبدا ، والضراء مأخوذ من الضر الذى هو ضد النفع ، ويجمع على ضراوات على القياس ، وقال الأخفش لا واحد لها . الضب : واحد الضباب وهى دواب تسكن الأرض الصلبة . الكدى : جمع كدية .

(٣) قوله أرمق العيش : أى أسدده وأقطعه عن التعليل ، واختلف قول أبى بكر فيه فقال مرة أرمق بكسر الميم وقال مرة أرمق بفتحها فاذا كان أرمق

أَرَاجِعٌ لِي الدَّهْرُ حَوْلاً كَامِلاً ... إِلَى الَّذِي عَوَّدَ أَمْ لاَ يُرْتَجَى (١)

يَا دَهْرُ إِنْ لَمْ تَكُ عُتْبَى فَأَتِّئِدْ ... فَإِنَّ إِرْوَادَكَ وَالْعُتْبَى سَوَا (٢)

بكسر الميم كان الفعل مبنيا للمعلوم والفاعل أنا ، وإذا كان أرمق بالفتح كان الفعل لغيره على ما لم يسم فاعله فكان التقدير أعطى منه بقدر ما يمسك رمقى وهو مقدار القوت . البرض : العطاء القليل ، وقال بعض اللغويين البرض القليل من الماء وقوله . فان رمت : أى هممت وقيل عالجت . الارتشاف : أن يستقصى شرب ما فى الاناء ، وهو دون الاشتفاف فى الاستقصاء ، والاشتفاف عندهم عيب . المنتشى : المطلب البعيد .

[المعنى] ما كنت أظن أن الزمن يحملنى على أن أكون كمن آوى إلى الارتقاء إلى صخرة صماء، صعبة المرتقى، جافية الإيواء، ليس لديها ماينقع الغلة، و يزيل العلة، حتى لا يرضى بمقامها ضب الجبل الشغوف بالإيواء تحت الصخور ، وأجدنى أتعاطى من العيش مايسد رمقى ، ويحفظ بعض ماء الحياة قانعا بالقليل غير طامح إلى الكثير، حيث إنى عليل بل إذا طلبت المزيد تعلقت بالمطلب البعيد.

[١] المعنى : هل يسمح الدهر بهناءة كانت ، فيعيد الزمن السعيد الذى مضى بوصل لا ينسى حلاه ، وحبور لا يحد مداه ، أم لا يرتجى منه أن يعيد شيئا مما مضى ، ولا حولا كاملا مما غبر، فان أمس الدابر لا يعود وإذا انقضى الشباب فلن يعوض ! ؟

(٢) العتبى : الرضى وهو الرجوع إلى المراد . فاتئد : أرفق يقال من ذلك اتأد يتئد اتئاداً ،واسم الفاعل متئد . والإرواد : الرفق والمهل، أرود يرود إرواداً فهو مرود ، ويقال أرود به أى أرفق ، ومنه قوله عز وجل : (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) . سوا : أى مثل ومستو .

[المعنى] يا دهر إن لم ينفع العتاب معك فى رقك لحالى ، وتحقيق آمالى ، فاتئد وأرفق بى وتمهل ولا تسرع فى تعذيبى، فانى وطنت النفس على ما يرضيك فإرواداك بى ، وعتباك لى بعد هذا سواء ، أى سيان عندى متماثلان .

رَفِّهْ عَلَيَّ طَالَمَا أَنْصَبْتَنِي ... وَاسْتَبْقِ بَعْضَ مَاءِ غُصْنٍ مُلْتَحَى (١)

لَا تَحْسَبَنْ يَا دَهْرُ أَنِّي ضَارِعٌ ... لِنَكْبَةٍ تُعْرِقُنِي عَرْقَ الْمُدَى (٢)

مَا رِسْتَ مَنْ لَوْ هَوَتِ الْأَفْلَاكُ مِنْ ... جَوَانِبِ الْجَوِّ عَلَيْهِ مَا شَكَا (٣)

---

(١) قوله . رفه : أى وسع على ، ورغد عيشى . أنصبتنى : بالصاد غير المعجمة أتعبتنى من النصب وهو التعب ؛ ويروى أنضيتنى بالضاد المعجمة وياء بعدها نقطتان من تحتها بمعنى هزلتنى وأضعفتنى ، والضنى الهزال يقال من ذلك ضنى يضنى ضنى إذا ضعف وهزل ، وأضنانى المرض أهزلنى .

(٢) الملتحى : المقشر يقال لحوت العود ألحوه لحوا ، ولحيته أيضاً ألحاه لحيا ، واللحاء قشر العود ، الضارع : الذليل الخاضع النكبة : المصيبة والشدة . تعرقنى : أى تزيل لحمى عن عظمى من قولهم عرقت العظم أعرقه عرقا إذا أكلت ما عليه من اللحم . المدى : السكاكين واحدها مدية .

[المعنى] ارحمنى برغد العيش فطالما أذقتنى كؤوس التعب والنصب ، واستبق بعض عصارة بقيت من ماء حياتى فلا خير فى عود يبس ولا جسم ذوى ، وكنى هزال جسمى وضياع لحمى كعود قشر جلده فالتحى ، ثم لا تظنن أنى ذليل لنكبة ومصيبة ذبحتنى ذبح السكاكين لحيوان حى فانى صبور شكور :

وتجلدى للشامتين أريهم ... أنى لريب الدهر لا أتزعزع

(٣) مارست : عالجت وقيل خالطت وقيل قاسيت . هوت : سقطت يقول لو سقطت عليه الأفلاك بالشدائد والمصائب ما شكا ذلك إلى أحد الأفلاك : هى التى تجرى فيها الشمس والقمر والنجوم ، واحدها فلك الجو : الهواء الذى بين السماء والارض

لٰكِنَّهَا نَفْثَةُ مَصْدُورٍ إِذَا جَاشَ لُغَامٌ مِنْ نَوَاحِيهَا غَمَا[1]

رَضِيتُ قَسْرًا وعَلَى الْقَسْرِ رِضَى مَنْ كَانَ ذَا سُخْطٍ عَلَى صَرْفِ الْقَضَا[2]

---

(١) قوله . لكنها . الهاء والألف كناية عن هذه القصيدة التى قالها . والنفثة : ما يلقيه الرجل من فيه إذا بصق ، يقال نفثت الحية تنفث نفثة ونفثا إذا ألقت ريقها ، وذلك الريق سم قاتل . المصدور : الذى يشتكى صدره ومنه المثل : لابد للمصدور أن ينفث . وقوله . جاش لغام : أى علا وارتفع ، يقال جاشت إليه نفسه أى ارتفعت ، وقيل جاش اجتمع ، وكذلك جاشت النفس : اجتمعت والأول أصح قال الشاعر :

أقول لها إذا جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

اللغام : الزبد وهو ما يلقيه البعير من فيه ، يقال لغم البعير يلغم لغامة إذا رمى اللغام وهو الزبد ، والملغم الفم ، ومنه تلغمت بالطيب إذا جعلته فى ملاغمك ، والملاغم ما حول الفم ، وهى جمع ملغم ، ويقال أيضا لغمت الشىء ألغمه لغما إذا خلطته فالتغم أى اختلط وقوله . من نواحيها . أى من جوانبها . غما بالغين المعجمة : سقط يقال غما البعير الزبد إذا رماه ينفض رأسه ومشفره يتناثر من فيه ، ويقال غما : غطى من قولهم : غميت الإناء إذا غطيته .

(٢) قوله : رضيت قسراً أى منعاً . والقسر : المنع يقال قسرت فلانا عن كذا أى منعته . والقسر أيضا : القهر على المكروه ، يقال قسره على كذا أى قهره عليه . السخط : الغضب .

[المعنى] رميت بمكايدك من هو أصلب من الحديد ، وأقوى على الدهر من مكايد الدهر ، من لو سقطت خطوب الأفلاك وشواظها النارية على جسمه ما شكا وقعها ، ولا أنّ لحدوثها ومصابها ، غير أن هذه القصيدة المفيدة للشكاية المعبرة عن الأنين ورفع الألم نفثة مصدور . جرت بها عادة من ازدحم صدره بما يفيض عنه كما يجيش صدر البعير فيرتفع زبده إلى فيه ويتساقط

إِنَّ الْجَدِيدَيْنِ إِذَا مَا اسْتَوْلَيَا عَلَى جَدِيدٍ أَدْنَيَاهُ لِلْبِلَى (١)

من جوانبه ، على أنى راض على القهر ، مقسور غير مختار ، وإنما يقسر على الرضا من لا يقدر على تغيير تصاريف القضاء .

(١) الجديدان : الليل والنهار ، وكذا الأجدان ، والعصران ، والملوان قال:

ألا يا ديار الحى بالسبعان أمل عليها بالبلى الملوان

والأسودان : التمر والماء . والأسودان أيضا : الليل والحرة ، والأبيضان اللبن والماء ، والأصفران : الذهب والزعفران ، والأحمران اللحم والخمر ، والأطيبان النوم والنكاح ، والأعذبان : الريق والخمر ، والحجران : الذهب والفضة ، والأزهران : الشمس والقمر ، والقمران أيضا : الشمس والقمر ، والخافقان : المشرق والمغرب ، والثقلان : الإنس والجن . ومثل هذا كثير ، ومذهب العرب فى هذا الضرب من الكلام إذا كان الشيئان يتواخيان ينسب الأنكر منهما إلى الأشهر كقولهم العمران فى أبى بكر وعمر ، فنسبوا أبا بكر إلى عمر ، لأنه أقام فى الناس أكثر من أبى بكر يعنى أنه دامت مدة خلافته أكثر مما دامت خلافة أبى بكر لأن أبا بكر كانت مدة خلافته سنتين ، وثلاثة أشهر وتسع ليال ، وكانت خلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال فلذلك صار عمر أشهر من أبى بكر ، وقال بعض النحويين : إنما يغلب هنا الأخف على الأثقل كقولهم القمران للشمس والقمر . فغلبوا القمر لأنه مذكر ، والمذكر أخف من المؤنث . كما أن المفرد أخف من المضاف ، ولهذا غلبوا عمر على أبى بكر لأن عمر غير مضاف وأبو بكر اسم مضاف لأنك أضفت أبا إلى بكر وقوله استوليا : يعنى غلبا وملكا ، ويجوز أن يكون استوليا تبعا ولزوما من قولهم ولى فلان عمله إذا تبعه ولزمه ، وأتى على بناء استفعل . أدنياه : قرباه . البلى : الإخلاق يقال ثوب بال وخلق ودارس ، والبلا يمد ويقصر ، فإذا كسرت أوله قصرته كما قال الشاعر :

ألا يا ديار الحى بالسبعان أمل عليها بالبلى الملوان

وإذا فتحت أوله مددته كما قال الآخر :

والمرء يبليه بلا السربال مر الليالى وانتقال الحال

مَا كُنْتُ أَدْرِى وَالزَّمَانُ مُولَعٌ بِشَتِّ مَلْمُومٍ وَتَنْكِيثِ قُوَى (١)

أَنَّ الْقَضَاءَ قَاذِفِى فِي هُوَّةٍ لاَ تَسْتَبِلُّ نَفْسُ مَنْ فِيهَا هَوَى (٢)

---

(١) قوله : ما كنت أدرى : أى ما كنت أعلم ثم حال بين أدرى ، وما علمت فيه بحشو هـذا البيت وجاء بالمعمول فيه فى البيت الذى بعده ، وهوأن ، وأن اذا وقعت فى باب الظن كفت عن المفعولين تقول : ماظننت زيداً عاقلا وما ظننت أن زيداً عاقل ، فزيدا فى المسألة الأولى مفعول أول لظن وعاقلا مفعول ثان . وفى المسألة الثانية كفت أن عن المفعولين . وعاقل خبر أن وقوله . والزمان مولع : أى ملازم ومغرى به يقال أولعت بكذا إذا لزمته ، الشت : التفريق . الملوم : المجموع من قولهم لمه يلمه إذا جمعه التنكيث : النقض مأخوذ من قولهم نكث العهد إذا نقضه . القوى : جمع قوة وهى إحدى قوى العهد أى طاقاته ومن هذا أخذت القوة :

[المعنى] إن مرور الليل والنهار على أى مخلوق جديد يسلماه إلى الهلاك والبلى ، يقصد أن توالى الليل والنهار وتعاقب الحدثان على بنى الانسان من أكبر عوامل الهدم ، فما ظنك بعبء التفكير فى محبوب نأى ، ووصل بعد ! ؟ ثم قال ما كنت أظن أن يلقى بى القضاء إلى ما ترى ، والدهر مولع أى شغوف بتفريق المجموع ، وتحطيم القوى ، شأنه فى كل العوالم والمواليد حيوان ونبات وجماد ، لان أو يبس ، تفرق أم اجتمع .

(٢) قوله : قاذفى : أى رامى ، والقاذف : الرامى يقال يقذفه فى بئر إذا رماه فيها . الهوة : الحفرة يتسع أسفلها ويضيق أعلاها وقوله : لا تستبل : أى لا تبرأ ولا تفيق يقال بل من مرضه وأبل واستبل إذا برئ . هوى : سقط من فوق إلى أسفل يقال : هوى يهوى هوياً قال الشاعر :

فشج بها الأماعز فهى تهوى هوىّ الدلو أسلمها الرشاء

فَإِنْ عَثَرْتُ بَعْدَهَا إِنْ وَأَلَتْ نَفْسِيَ مِنْ هَاتَا فَقُولاَ لاَ لَعَا[1]

وَإِنْ تَكُنْ مُدَّتُهَا مَوْصُولَةً بِالْحَتْفِ سَلَّطتُ الْأُسَى عَلَى الْأَسَى[2]

---

(١) قوله : فان عثرت بعدها : أى زللت والعثر : الزلل . يقول : إن زللت بعد هذه النكبة فلا سلمت ، ومعنى وألت : نجت وخلصت . يقال : وأل فلان من كذا يئل وألا إذا خلص منه ونجا ، والموئل مفعل وهو الملجأ ، يقال هذا موئل فلان أى ملجؤه ومفزعه الذى يفزع إليه أى يلجأ إليه قال الله جل ذكره : (بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا) أى ملجأ ومفزعا ، وأما آل فلان إلى كذا بالمد فمعناه رجع . يقال آل الأمر إلى كذا يؤول أولا مثل قال يقول قولا وقوله . هاتا : إشارة إلى مؤنث بمنزلة هذا للمذكر لأنه عائد على العثرة المضمرة التى دل عليها قوله : وإن عثرت ، وتقديره إن عثرت عثرة بعدها ثم وألت نفسى من هذه العثرة ، وإن شئت كان الضمير عائداً على الهوة فى البيت الذى قبل هذا . والهوة : الحفرة وجمعها هوى ، هاتا : بمعنى هذه تقول العرب هاتا فعلت كذا ، وللمذكر هذا فعل كذا ، وقوله لالعا : أى لا نجا ولا خلاص . ولعا دعاء للعاثر بالسلامة إذا جئت به دون لا . فان أتيت معه بلا فمعناه لا سلامة .

[المعنى] ما كنت أدرى أن قضاء الله نفذ علىّ بتعلق بما لم أنل منها بغيتى ، رمى بى فى حفرة وهوة عميقة لا تبرأ نفس من سقط فيها ، هذا لأن تعشق الدلاء ، نأى مكانها ، وشط وليها ، هوّة القلب السحيقة ، فان عثرت فيها بعد هذه النكبة الدهماء ، والمصيبة الصماء ، فلا رجاء فى السلامة ، ولا أمل فى النجاة .

(٢) قوله : وإن تكن مدتها : الهاء فى مدتها عائدة على النكبة . الحتف : الموت وجمعه حتوف . الأسى : بضم الهمزة جمع أسوة أى تعزية . قال الشاعر :

ولقد علمت وإن ضربت لى الأسى أن الرزيئة يوم قتل دؤاد

أى التعدى . والأسى بفتح الهمزة أى الحزن .

إِنْ أَمْرَأَ الْقَيْسِ جَرَى إِلَى مَدَى فَاعْتَاقَهُ حِمَامُهُ دُونَ الْمِدَا(١)

(١) قوله : إن امرأ القيس جرى إلى مدى : أى إلى غاية وقوله : فاعتاقه حمامه : أى منعه يقال : اعتاقه وعاقه بمعنى واحد . الحمام بالكسر : الموت مأخوذ من قولهم حم الأمر أى قرب .

وكان من حديث امرىء القيس أن أباه طرده لما قال الشعر ، فكان ينتقل فى أحياء العرب ويستتبع الصعاليك منهم فكان يغير بهم ، وكان أبوه ملك بنى أسد فعسفهم عسفا شديدا فتمالئوا على قتله فقتلوه . فلما بلغ امرأ القيس الخبر وهو يشرب قال : ضيعنى صغيراً وحملنى ثقل الثأر كبيراً . اليوم خمر ، وغداً أمر ، فأرسل مثلا . ثم جمع جمعا من بكر بن وائل وغيرهم من صعاليك العرب، فخرج بهم يريد بنى أسد فخبرهم كاهنهم بخروجه إليهم فارتحلوا وبينهم امرؤ القيس فوقع ببنى كنانة فقتلهم قتلا ذريعاً ، وأقبل أصحابه يقولون : ياثارات الهمام ياثارات الهمام،فقالت عجوز منهم : واللات أيها الملك مانحن بثأرك ، وإنما ثأرك بنو أسد وقد ارتحلوا فرفع عنهم القتل وأنشأ يقول :

ألا ياهف قلبي من أناس هم كانوا الشفاء فلم يصابوا
وقاهم جدهم ببنى على وبالأشقين ما كان العقاب
وأفلتهن علباء جريضا ولو أدركنه صفر الوطاب

قوله : ببنى على : يريد بنى كنانة . نسبوا إلى على بن مسعود الغسانى وكان تزوج أمهم بعد أبيهم وربوا فى حجره فنسبوا إليه . ثم إن أصحاب امرىء القيس اختلفوا وقالوا : وقعت بقوم براء وقتلتهم ! فخرج إلى اليمن إلى بعض مقاويل حمير ، وكان اسمه قرمل فاستجاشه فثبطه قرمل . فذلك حيث يقول :

وكنا أناسا قبل غزوة قرمل ورثنا الغنى والمجد أكبراً أكبرا

ثم توجه إلى قيصر ملك الروم ، وجعل طريقه على تيماء - حصن للسموأل

... ...

ابن عاديا ـ فأودعه درعا وسلاحا ، وكان قد مشى معه صاحب يقال له عمرو بن قميئة . فلما رأى عمرو بن قميئة الدرب ـ وهو حاجز بين بلادالعرب وبين بلاد العجم ـ بكى جزعا لفراقه بلاد العرب ودخول بلاد العجم ففى ذلك قال امرؤ القيس :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ثم سار حتى وصل إلى قيصر فى ملكه . فاستأذن عليه فأذن له . فلما دخل عليه قرب مجلسه وأدنى مكانه ، واتخذه نديما ، وجمله ، وخلع عليه ، وأحسن إليه، ثم استعان به فوعده أن يرفده بجيش ، وكان امرؤ القيس جميل الوجه ، وكان لقيصر ابنة حسنة جميلة فأشرفت يوما من قصر لها فرآها امرؤ القيس فى دخوله إلى أبيها فتعلق بقلبه حبها وراسلها فأرسلت إليه فسار إليها فطرقها ليلا فذلك حيث يقول :

فقلت يمين الله أبرح قاعـــدا ... ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

وكان سبقه إلى قيصر رجل من أعدائه من بنى أسد يقال له الصحصاح فوشى به إلى قيصر فتذمم أن يقتله ، فوجه معه جيشا ثم أتبعه رجلا ومعه حلة مسمومة ، وقال له اقرأ عليه السلام ، وقل له إن الملك قد بعث إليك بحلة قد لبسها ليكرمك بها ، وأدخله الحمام فاذا خرج ألبسه إياها ، فلما لبسها نفط بدنه ، فكان يحمل فى محفة . فذلك حيث يقول :

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ... ليلبسنى من دائه ما تلبسا

وبدلت قرحا داميا بعـــد صحة ... لعـــل منايانا تحولن أبؤسا

ثم نزل إلى جانب جبل وإلى جانبه قبر لبعض بنات ملوك الروم وكان اسم ذلك الجبل عسيباً . فأنشأ يقول :

... ...

أجارتنا إن الخطوب تنوب وإنى مقـــيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ها هنـا وكل غريب للغريب نسيب
فإن تصلينى فالمودة بيننا وإن تبعدينى فالمزار عصيب
أجارتنا ما فات ليس يؤوب وما هو آت فى الزمان قريب
وليس غريبا من تناءت دياره ولكن من وارى التراب غريب

فلما أيقن بالموت قال :

كم طعنة مثعنجره وخطبة مسنحفره
وجفنة مدعثره متروكة بأنقره

قوله مثعنجرة : منتصبة . مسنحفرة : ماضية . مدعثرة : مكسرة ، أنقرة : موضع . يرثى بهذا نفسه . يقول : كم من خصلة جلية تجمعت قد تركت فى هذا الموضع إذ دفن فيه . فتضمنها قبره ، وأسلمه أحبته ثم مات فهناك قبره .

[المعنى] وإن طالت مدة هذه النكبة، وأمد هاتيك المصيبة إلى الموت وانقضاء الحياة فلن أزال أعالجها ما استطعت إذا قدرت بالتصبر والتسلى والتعزى حتى تتغلب رماح المجالدة فتؤخر تقدم جيوش الحزن والأسى - وإنما يهلك أسى وحزنا من لم يتدرع بأسوة تمحو آثاره ، أو على الأقل تقلل غباره - على ضد قول أخى مالك ابن نويرة يرثيه :

يقولون تبكى كل قبر رأيتـه لقـبر ثوى بين اللوا فالدكادك
فقلت لهم إن الأسى تبعث الأسى دعونى فهـذا كله قـبر مالك

وإن امرؤ القيس قبلى قد امتدت به نكبته حتى الوفاة ، دون أن يحقق غايته ، ويقضى وطره الذى طالما صبا إليه ، وجد من أجل تحقيقه كل الجد ، فأخشى أن أنتهى إلى ما انتهى ، ويعوقنى دون الوصول إلى غايتى ما عاقه فأنشد من الآن : أضاعونى وأى فتى أضاعوا !!!

وَخَامَرَتْ نَفْسُ أَبِي الْجَبْرِ الْجَوَى حَتَّى حَوَاهُ الْحَتْفُ فِيمَنْ قَدْ حَوَى (١)

(١) خامرت : خالطت، ومنه سميت الخمرة لمخالطتها العقل وتغطيتها عليه الجوى : مقصور مفتوح داء فى الجوف ، وقيل الجوى : تأثير الحزن فى الجوف . يقال من ذلك جوى يجوى جوى ، والجواء مكسور وممدود : اسم أرض . قال الشاعر :

عفا من آل فاطمة الجواء فيمن فالقوادم فالحساء

ويقال الجواء هنا : جمع جو وهو البطن من الأرض وقوله : حواه : أى حازه . الحتف : الموت وجمعه حتوف .

وكان من حديث أبى الجبر وهو رجل من كندة ، وكان اسمه وكنيته واحدا ، وكان من الملوك . أنه خرج إلى كسرى يستجيشه على قومه فأعطاه جيشا من الأساورة . فلما صاروا بكاظمة نظروا إلى وحشة بلاد العرب فقالوا أين نذهب مع هذا فسموه ، فلما اشتد وجعه قالوا له قد بلغت إلى هذه الحال فاكتب إلى الملك أنك قد أذنت لنا ، فلما كتب لهم ورجعوا خف ما به ، فرحل إلى الطائف إلى الحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب ، فداواه فبرىء ، وارتحل يريد اليمن فانتقضت علته، فمات فى الطريق . فقالت عمته كبشة ترثيه :

ليت شعرى وقد شعرت أبا الجبر بما قد لقيت فى الترحال
أتمطت بك الركاب أبيت اللعن حتى حللت فى الأقتال
أشجاع فأنت أشجع من ليث هموس السرى أبى الأشبال
أجواد فأنت أجود من سيل تداعى من مسيل هطال
أكريم فأنت أكرم من ضمت حصان ومن مشى فى النعال
أنت خير من عامر وابن وقا ص ومن جمعوا ليوم المحال
أنت خير من ألف ألف من القوم إذا ما اكفهرت وجوه الرجال

[المعنى] أن أبا الجبر أودت به علته بالسم عند ما خامرت باطنه ،

وَابْنُ الْأَشَجِّ الْقَيْلُ سَاقَ نَفْسَهُ إِلَى الرَّدَى حِذَارَ إِشْمَاتِ الْعِدَى(١)

وقد حاول علاجها بشتى الوسائل، فكل شيء يهون من ألم الجراح الظاهرية، أما ألم الجراح الباطنية فنذير البؤس ومبعث الردى والدمار، وقد أمات أبا الجبر ما أمات من اعتل بالجوف قبله ، وإن علتى مكمنها قلبي ، ومأواها فؤادى ، وهى أنكى وأشد من علة أبى الجبر ، فان كان أبو الجبر وجد منها برءا وعلاجا يبعده عن الردى الذى حواه فانى واجده، والخلاصة إعلانه يأسه من برء دائه .

(١) العدى : والعدى ، والعداة ، والأعداء واحد ، والعدى أيضاً مكسور مقصور الغرباء ، ويكتب بالياء قال الشاعر :

إذا كنت فى قوم عدى لست منهم فكل ما علفت من خبيث وطيب

وأما العداء بالكسر والمد : فالموالاة بين الشيئين ، وهى المتابعة . قال الشاعر :

فعادى عداء بين ثور ونعجة دراكا ولم ينضح بماء فيغسل

والقيل : الملك دون الملك الأعظم وجمعه أقيال وأقوال ، وقوله : ساق نفسه إلى الردى : أى إلى الهلاك يقال من ذلك ردى يردى ردى إذا هلك قال الله تعالى : (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) .

وكان من حديث أبى الأشج ، واسمه عبد الرحمن بن الأشعث بن قيس الكندى: أن الحجاج ولاه سجستان فخلع الحجاج دون عبد الملك بن مروان واتبعه أهل العراق قراؤهم وعلماؤهم ، منهم الشعبى واسمه عامر بن شراحيل ومنهم سعيد بن يسار أخو الحسن بن أبى الحسن البصرى ، ومن أشبههم فغلب على البصرة والكوفة ، وقاتل الحجاج مدة طويلة ثم انهزم ورجع إلى ريتقل سلطان الترك . فبذل له الحجاج مالا كثيرا فغدر به ريتقل . وأسلمه إلى رسل الحجاج، فلما صاروا بالرى باتوا على سطح حصن مرتفع فكان يؤمر

وَاخْتَرَمَ الْوَضَّاحَ مِنْ دُونِ الَّتِي أَمَّلَهَا سَيْفُ الْحِمَامِ الْمُنْتَضَى(١)

وهو أسير ، وكان قد قرن إلى رجل من بنى تميم بسلسلة فى أيديهما فلما كان بعض الليالى قال للتميمى : قم معى لأبول . فلما قام معه أشرف من السطح إلى الأرض وجمع ثيابه فقال له التميمى : ما تصنع أيها الأمير ؟ قال الساعة أعلمك . ثم رمى بنفسه فوقع هو والتميمى فماتا جميعا ، وحمل رأسه إلى الحجاج . فهذا معنى قوله : ساق نفسه إلى الردى حذار إشمات العدى .

[المعنى] أن الأمير عبد الرحمن بن الأشعث بن قيس الكندى الشهير بابن الأشج فضل الموت على الحياة المصاحبة لشماتة الأعداء حين وقع أسيرا بغدر ريتقل سلطان الترك به وكان قد لجأ إليه يستغيث به نظير مال بذله الحجاج إليه ـ والترك كأهل العراق أهل نفاق ومعدن اللؤم وأس الخيانة ـ يقصد ما فائدة حياة يلازمها الألم المبرح ثم يعقبه شماتة الأعداء عند عضال الداء ! ؟ على حد قول عنترة العبسى :

لا تسقنى ماء الحياة بذلة بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم فى العز اطيب منزل

وقول الآخر :

لا تسقنى ماء الملام فإننى صب قد استعذبت ماء بكائى

وقول الشارح : العدى والعدى والعداة والأعداء واحد الخ الأول بكسر العين جمع عدو ، والثانى بضم العين اسم جمع لعدو ، والثالث بضم العين جمع المعادى بمعنى المخاصم وقوله وأما العداء بالكسر وبالمد فالموالاة بين الشيئين الخ فيقال عليه وبمعنى المعاداة أيضا يقال : عاداه يعاديه عداء ومعاداة خاصمه وصار له عدوا ، والأعداء جمع عدو ، وجمع الجمع أعاد . اه من المنجد .

(١) واخترم : أهلك واقتطع ، يقال خرمت الشئ إذا قطعته ، والخرم : النقص ، ومنه الخرم فى الشعر وهو نقصان حرف من أول البيت إذا كان أوله مبنيا على جزء ابتداؤه وتد . الحمام : الموت . المنتضى : المسلول من قولهم :

... ...

انتضيت السيف أنتضيه انتضاء إذا أخرجته من غمده ، واسم الفاعل منتض ، ويقال سيف منتضى أى مجرد .

وكان من حديث الوضاح واسمه جذيمة بن مالك بن فهم الأزدى الملك أنه كان أبرص . فهابت العرب أن تقول أبرص،فقالت الأبرش والوضاح ، وكان فى أيام ملوك الطوائف قد ملك شطى الفرات إلى صراة جاماس ، وإلى الأنبار، وما وراء جاماس ، وما وراء ذلك إلى السواد ستين سنة ، وكان من العماليق ، ويقال من سلج ، وكان قد قتل أبا الزباء وغلب على ملكها ، وألجأ الزباء إلى أطراف مملكتها وكان يغير على ملوك الطوائف حتى غلبهم على كثير مما فى أيديهم ، وكانت الزباء ملكة أديبة عاقلة فبعثت إليه تخطبه على نفسها ليتصل ملكها بملكه . فدعته نفسه إلى ذلك فشاور وزراءه فى ذلك فكلهم أشاروا عليه أن يفعل إلا قصير بن سعد فانه قال : أيها الملك لا تفعل فان هذا خديعة ومكر . فعصاه وأجابها إلى ذلك ، فقال قصير عند ذلك : — لا يقبل لقصير رأى — فأخرجها مثلا . ثم كتبت إليه بعد ذلك أن سر إلى ، فجمع أصحابه ببقة وهى قرية على الفرات ، وشاور وزراءه فأشاروا عليه بالخروج إلا قصيراً فقال له : أيها الملك أما إذا ما عصيتنى فرأيت جندها قد أقبلوا إليك فترجلوا وحيوك ثم ركبوا وتقدموا فقد كذب ظنى ، وإن رأيتهم إذا حيوك طافوا بك فانى معرض إليك العصا ، وهى فرس لجذيمة لا تدرك فاركب وانج بنفسك . فلما أقبل أصحابها حيوه وطافوا به فقرب إليه قصير العصا فشغل عنها فركبها قصير وأخذ جذيمة فنظر إلى قصير على العصا ، وقد حال السراب دونه . فقال : — ما ضل من تجرى به العصا — فأخرجها مثلا وأدخل جذيمة على الزباء وكانت وفرت شعر عانتها حولا . فلما دخل انكشفت له ، وقالت : أذات عرس ترى يا جذيمة ؟ أما إنه ليس

... ...

من عوز المواسى ، ولا قلة الأواسى ؟ ولكنها شيمة من أناسى ! وأمرت به فأجلس على نطع وجىء بطست من ذهب فقطعت راهشيه ، وفى ذلك قال الشاعر :

وقدمت الأديم لراهشيه وألفى قوله كذبا ومينا

وكان قد قيل لها احتفظى بدمه . فانه إذا أصابت الأرض منه قطرة أخذ بثأره . فقطرت من دمه قطرة على الأرض فقالت : لا تضيعوا دم الملك . فقال جذيمة : — دعوا دما ضيعه أهله — فأرسلها مثلا ومات .

[المعنى] أن جذيمة الأبرص الشهير بالأبرش أو الوضاح الملك الأزدى — وقد بلغ فى عزة ملكه ما بلغ وغلب على ملوك الطوائف — أهلكه سيف الموت المسلول حين أتبع نفسه هواه ، وتعلق بحب الزباء الملكة الحسناء وخلبه منها سراب وعدها المزيف بزواجها منه ، وغلبه حب الوصل ، على حيطة العقل ، فجرفه سيل الردى قبل بلوغه ما كان يأمل ، ولو عمل بقول عمر بن أبى ربيعة المخزومى حين يقول فى وعد النساء :

وليس لمخضوب البنان يمين . واتخذ عقله قائدا ، وحسن تفكيره رائدا ، ولم يهمل مشورة أمينه قصير — وهو بحوادث الحدثان خبير وبصير — : لنجا من التمثيل به وإهراق دمه أمام ناظره . يقصد أن يقول : إن الملوك الرفيعة الجانب ، السامية المقدار ، القوية البأس ، الشديدة فى البطش ، قد وقعوا فى أسر الهوى دون فكاك أو خلاص ، وندموا حين أفرطوا ولات حين مناص ، فياليت شعرى هل أنا راكب متن غوايتهم سائر فى شططهم ! ؟ أم أكون بتمهلى بمنأى عن نهايتهم ! فلا أقول ما قاله الملك المفرط : دعوا دما ضيعه أهله

فقدَ سَمَا قَبْلِي يَزِيدُ طَالِبًا شَأْوَ الْعُلَا فَمَا وَهَى وَلَا وَنَى (١)

فَاعْتَرَضَتْ دُونَ الَّذِي رَامَ وَقَدْ جَدَّ بِهِ الْجِدُّ اللَّهَيْمُ الْأَرَبَى (٢)

---

(١) سما : علا الشأو : الغاية ، وقيل الشأو : البعد ، والشأو : طلق الفرس يقال جرى الفرس شأوا أوشأوين . العلا : الشرف . ما وهى : أى ماضعف ، وقيل وهى : انصدع . يقال وهى يهى وهيا ، وأصل الوهى الشق، قال الله عز وجل : (وانشقت السماء فهى يومئذ واهية) ولا ونى : أى ولا فتر . قال الله عز وجل : (ولا تنيا فى ذكرى) أى ولا تفترا ، وتصريفه ونى ينى ونيا ، واسم الفاعل وان .

وكان من حديث يزيد بن المهلب بن أبى صفرة أنه خرج على بنى أمية وخطب له بالبصرة وسلمت عليه جارية من جواريه بالخلافة ، والعباس ابن الوليد بن عبد الملك بإزائه فقال لها :

رويدك حتى تنظرى عم تنجلى غيابة هـــذا العارض المتألق

فدست إليه بنو أمية رجلا من كلب يقال له الفحل وابن الفحل وكان ذا بأس شديد وإقدام فقتله فى بعض خلواته . فقال الشاعر من كلب فى ذلك :

قتلنا يزيد بن المهلب بعـــد ما تمنيتم أن يغلب الحق باطله

وما كان فى أهل العراق منافق عن الدين إلا من قضاعة قاتله

ثم صفا الأمر لبنى أمية .

(٢) فاعترضت : أى بدت ، وقيل معناه عارضت وفيه تقديم وتأخير . أى فاعترضت اللهيم الأربى دون الذى رام . ومعنى رام : طلب . جد : حث وأسرع . جد : اجتهد . وجد أيضا فى غير هـذا الموضع : قطع . واللهيم والأربى : اسمان من أسماء الداهية وأصل الداهية الشدة وقوله جد : هو العزم . والجد أيضا : الحق .

هَلْ أَنَا بِدْعٌ مِنْ عَرَانِينَ عُلاَ جَارَ عَلَيْهِمْ صَرْفُ دَهْرٍ وَاعْتَدَى (١)
فَإِنْ أَنَالَتْنِي الْمَقَادِيرُ الَّذِي أَكِيدُهُ لَمْ آلَ فِي رَأْبِ الثَّأَى (٢)

[المعنى] ما أنا طالب شيئا حقيرا ، ولا مطارد صغيرا ، وإنما أعتزم أمرا خطيرا وشرفا كبيرا ، فلا ينبغى لى أن أقصر عن إدراك غايته ، أوأن أضعف قبل أن أصل إلى نهايته :

وما نيـــل السعادة بالتمنى ولـكن ألق دلوك فى الدلاء
تجئك بملئها طورا وطورا تجئك بحمأة وقليـــل ماء

ولاسيما وأن يزيد بن المهلب بن أبى صفرة الأمير قد سما قبلى حين طلب العلا والشرف مثلى ، وبلغ فى المجد حدا لا يضاهى بمـا أقدم عليه من عزم أكيد ، وعمل مجيد ، وسعى متواصل ، فـما عراه قبل بلوغه الغاية ضعف ، ولا أقعده فتور ، وأرى لى همة تقول : بالسابق فى الفضل اقتد . نعم عارضت يزيد الهمام الشدة الدهماء ، والكارثة العمياء ، المسماة باللهيم وبالأربى دون الذى رام وقصد ، فقطعت حبال وصاله ، وحالت دون تحقيق آماله ، بعـد أن جد جده ، وتقدم سيره ، ولـكن ليس العيب عيبه . وإنما العيب كل العيب على من غدر به .

(١) البدع : الذى يكون أولا فى كل أمر ، قال الله عز وجل : (قل ما كنت بدعا من الرسل) أى لست بأول مرسل ، والعرانين : الأشراف ، واحدهم عرنين . والعرنين : الأنف وإنما سمى الشريف عرنينا لأنه كالعرنين فى الوجه وهو أرفع ما يكون ، جار : عدل عن الحق أى مال عنه . اعتدى : ظلم .

(٢) فان أنالتنى : أعطتنى المقادير ، جمع مقدار ، وهو القدر . أكيده : أطلبه ، وأحتال عليه . لم آل : لم أقصر رأب : إصلاح ، من قولهم رأبت الشىء أرأبه رأبا . الثأى : الفساد ، ومعناه لم أقصر فى إصلاح الفساد .

[المعنى] لست بدعا فى الأشراف رأموا العلا فرموا بالنكبات ، وقصدوا الشرف فنحوا عن الغايات :

وَقَدْ سَمَا عَمْرٌو إِلَى أَوْتَارِهِ فَاحْتَطَّ مِنْهَا كُلَّ عَالِي الْمُسْتَمَى (١)

فَاسْتَنْزَلَ الزَّبَّاءَ قَسْرًا وَهِيَ مِنْ عُقَابِ لُوحِ الْجَوِّ أَعْلَى مُنْتَمَى (٢)

وفى الرياض نبات فاق رونقه وليس يرجم إلا ما له ثمر

وفى السماء نجوم لا عداد لها وليس يخسف إلا الشمس والقمر

وما حارب الدهر إلا الأكابر فلى بهم خير أسوة فى تحمل عادياته ، وشن غاراته ، فان أنالتنى المقادير ما أتمناه لم أدخر جهدا فى إصلاح ما عبثت به يد الزمان ، وأفسده الحدثان . وقوله الثأى : الفساد ، لا يتفق مع ضبطه بضم الثاء وفتح الهمزة وإنما هو معنى الثأى بفتحها وسكون الهمزة التى هى عين المصدر . أما الثأى بضم الثاء مع فتح الهمزة : فآثار الجرح . وعبارة المنجد فى المادتين : ثأى يثأى ثأيا وأثأى : الشئ خرمه ، فتقه ، أضعفه وأفسده . واثأى فى القوم : جرح فيهم وقتل ثئى ، الشئ يثأى ثأى : خرم . الثأى : آثار الجرح . الثأى : مصدر . ويقال فلان برأب الثأى ، أى يصلح الفساد . اهـ

(١) سما : علا . الأوتار : جمع وتر ، وهو طلب الدم قوله : فاحتط منها أى فأنزل . المستمى : المكان العالى المرتفع ، وهو مفتعل من سما إذا ارتفع ، وزيدت التاء فيه لبناء افتعل كما زيدت فى استجاب .

(٢) الزباء : اسم امرأة . القسر بالسين : القهر والغلبة . والعقاب : طائر معلوم وهو من سباع الطير ، وجمعه عقبان . اللوح : الهواء الذى بين السماء والأرض ، واللوح أيضاً : العطش بضم اللام فيهما . الجو أيضاً : ما بين السماء والأرض . منتمى : أى موضع مرتفع إليه ، وهو مفتعل لأنه اسم مفعول من نميت الشئ إذا رفعته ، واسم الفاعل منتم ، وفى هذا البيت تقديم وتأخير تقديره فاستنزل الزباء قسراً وهى أعلى منتمى من عقاب لوح الجو أى فى منعتها أكثر امتناعا من العقاب الذى فى الجو .

... ...

وكان من حديث عمرو ، وقصير ، والزباء ـ وهو عمرو بن ربيعة بن نصر ، وكان ابن أخت جذيمة الأبرش ـ أن الزباء لما قتلت جذيمة ونجا قصير بن سعد القضاعى على العصا سار إلى عمرو وقال : ألا تطلب بثأر خالك ؟ قال : وكيف أقدر على الزباء وهى أمنع من عقاب الجو ؟! فأرسلها مثلا . فقال له قصير : اجدع أنفى وأذنى واضرب ظهرى حتى تؤثر فيه ودعنى وإياها فألحق بها وأقول قد فعل بى عمرو ما ترين من أجل أنه اتهمنى فى أمر خاله ، ففعل به ذلك . فلما سار إليها وأخبرها بذلك وقال لها: قد لقيت هذا من أجلك . فقالت وكيف كان ذلك ؟! قال زعم أنى أشرت على خاله بالخروج إليك حتى فعلت به مافعلت . فوعدته من نفسها بالإحسان فأحسن خدمتها وأظهر النصيحة لها حتى حسنت منزلته عندها ، وزين لها التجارة والأسفار فبعثت معه مالا وإبلا إلى العراق فسار قصير إلى عمرو مستخفياً فأخذ منه ماله وزاد على ماله فاشترى طرفا من طرف أهل العراق ورجع إليها فأراها تلك الأرباح فسرت . ثم كركرة فأضعف لها المال حتى عجبت من فعله وازدادت به غبطة وسروراً . فلما كان فى المرة الثالثة اتخذ جوالقات الجص من المسوح وجعل ربطها من أسافلها إلى داخل ، وأدخل فى كل جوالق رجلا بسلاحه ، وأقبل إليها وأخذ غير الطريق فكان يسير الليل ويكمن النهار ، وأخذ عمراً معه ، وكانت الزباء قد صور لها عمرو قائما وقاعداً وراكبا ، وكانت قد اتخذت نفقا أجرت عليه الماء من قصرها إلى قصر أختها زبيبه ، وكان قد بعد عنها خبر قصير ، فسألت عنه فقيل لها أخذ الغوير وهو موضع ، فقالت : عسى الغوير أبؤسا ، فأرسلتها مثلا ، ودخل قصير على الزباء وقد تقدم العير فقال لها قومى فانظرى إلى العير فرقيت فوق سطح لها فجعلت تنظر إلى العير مقبلة تحمل الرجال تمشى قليلا قليلا ، فأنكرت ذلك المشى وقالت :

... ...

ما للجمال مشيها وئيـــداً أجندلا يحملن أم حديدا
أم صرفانا بارداً شـــديداً أم الرجال جثما قعـــودا

فانتهوا إلى حصنها ، وقد أظلم الليل وشغلت بشيء ولم ترتب حاجبا على الباب ، وكان عمرو قد وصف له قصير باب النفق ، ووصف له الزباء، فلما دخلت العير المدينة ، وعلى الباب البوابون من النبط ، ومنهم واحد فى يده مخصرة ، وهو سفود ، قطع جوالق منها بالمخصرة فأصابت رجلا فضرط، فصاح البواب بالنبطية : بشتا بشتا ، وتفسيره بالعربية الشر الشر، فانتضى قصير سيفه فضرب به البواب فقتله ، وجاء عمرو على فرسه فدخل الحصن عقب الإبل ، وابتركت الإبل ، وحلت الرجال الجوالقات ، ومشوا فى المدينة بالسلاح . فسار قصير ومن معه حتى دخلوا قصر الزباء ، وكانت تتعرف عمراً على كل حال من أحواله . تريد بذلك أن تعرفه لتكون كلما نظرت إليه أخذت حذرها منه . فلما رأت الزباء عمراً ولت هاربة تريد النفق لكى تنجو فيه فلحقها عمرو فلما علمت أنها لا تفلته مصت خاتما كان فى يدها مسموما وقالت : بيدى لا بيدك يا عمرو . فماتت مكانها ، وقيل إن عمراً جللها بالسيف واستباح بلادها ، واستولى ملكها .

[المعنى] أن طالب العلو بالجد يعلو ، وإن عمرو بن ربيعة ابن أخت جذيمة الأبرش لما كان عالى الهمة ، صادق العزيمة ، قوى الشكيمة ، سما إلى اقتناص رقاب الملوك فقتل الزباء أخذا بثأر خاله المقتول بأمرها وتدبير خديعتها ، ولم يسترح له بال ولم يطمئن له بلبال ، حتى سقاها كأس حمامها بيديها ، وأذلها وهى أمنع من عقاب حلق فى جو السماء ، ورد كيدها فى نحرها ، وإنه لى خير مثال يحتذى فى السعى إلى الغاية، لا فى المكيدة فمطلوبه خصمه ، ومطلوبى حبيبى ، ومالك فؤادى .

وَسَيْفٌ اُسْتَعْلَتْ بِهِ هِمَّتُهُ حَتَّى رَمَى أَبْعَدَ شَأْوِ الْمُرْتَمَى (١)

فَجَرَّعَ الْأَحْبُوشَ سُمًّا نَاقِعًا وَاحْتَلَّ مِنْ غِمْدَانَ مِحْرَابَ الدُّمَى (٢)

---

(١) قوله . وسيف استعلت به همته : يعنى سيف بن ذى يزن ملك اليمن وله قصة عجيبة أنا ذاكرها إن شاء الله تعالى وقوله . استعلت : أى علت وارتفعت يقال : علا واستعلى بمعنى واحد . الشأو : الغاية ، وشأو كل شئ غايته ، وشأو الفرس طلقه قال الشاعر فى تثنيته :

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه تقول هزيز الريح مرت بأثأب

المرتمى : موضع الرمى ، وهو الذى يقال له الغرض ، ويقال له أيضاً الهدف ، ويقال له أيضا القرطاس .

(٢) قوله . جرع : أى سقى ، والجرعة القليل من الماء ، ومنه قول الله عز وجل : (يتجرعه ولا يكاد يسيغه) أى يقطع شربه ، والأحبوش ملك الحبشة ، ويقال للجماعة أيضا أحبوش وحبشة ، وقد تحبشوا إذا اجتمعوا . ناقعا : ثابتا يقال نقع نقوعا إذا ثبت.احتل : نزل بالمكان ، ومنه سمى المكان الذى ينزل فيه محلا . غمدان موضع بصنعاء اليمن ، وكان فيه بناء عظيم ، وصور من الرخام هدمه عثمان بن عفان رضى الله عنه فى الاسلام ، ويقال إن رسومه باقية إلى الآن . والمحراب ها هنا : غرفة بصنعاء فيه صور قديمة حسنة . أنشد الأصمعى للعرب :

ربت محراب إذا جئتها لم أدن حتى أرتقى سلما

وقيل المحراب : المجلس فى البيت ، وهو أكرم موضع فيه ، ومن هذا سمى محراب المسجد لأنه أرفع موضع فيه . الدمى : الصور . واحدها دمية قال الشاعر :

أو دمية من مرمر غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد

... ...

و يقال للنساء أيضا دمى تشبها بهن ، وصنعاء باليمن من البلدان التى لا يدرى من بناها ، وتدمر بالشام .

وكان من قصة سيف بن ذى يزن أن الحبشة لما غلبوا على اليمن وطال مكثهم . خرج سيف وهو من أهل بيت المملكة إلى الروم يستنصر قيصر ، فشاور وزراءه فقالوا له : أيها الملك ، إن الحبشة فى دينك ، ودين هذا العربى مخالف دينك فماطله ، وكره قيصر أن يخفره بعد ما وعده . فلما طال ذلك عليه خرج إلى الحيرة بعد سبع سنين من مقامه بأرض الروم فسار إلى بعض ملوك فارس يستنصره — أحسبه — هرمز بن قباز . فلما دخل بلده أكرمه وبالغ فى كرامته ، ورفع مجلسه وأدناه . فقال له ترجمانه ما تبتغى من الملك فقد أمرنى أن أسألك عما قصدت إليه ؟ فقال له : أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغربة . فقال له الترجمان : يقول لك الملك أى الأغربة الهند أم الحبشة ؟ فقال : بل الحبشة ، وجئت إلى الملك لينصرنى عليهم فنكون فى دينه ، فانه أحب إلى أن يملكنى وقومى من أن تملكنى الأغربة . فقال له الترجمان : الملك يقول لك هيهات هيهات . بعدت عنا أرضك ، وهى مع ذلك أرض قليلة الخير ، وإنما بها الشاء والبعير ، وهذا لا حاجة لنا فيه . وأمر له بعشرة آلاف درهم فقبضها . فلما خرج من عنده وهبها على باب الملك ، فاتصل ذلك بالملك . فوجد عليه وأمر برده إليه ، فقال له الترجمان : الملك وجد عليك . فقال : ولم ذلك ؟ فقال عمدت إلى حباء الملك وكرامته فأنهبته العبيد والإماء . فقال : وما أصنع بالمال ؟ وهل حباؤه إلا ذهب أو فضة ، وإنما كانت إرادته أن يرغب الملك فى بلاده ، فلما سمعه الملك أمره بالمقام ووعده بكل ما يحبه ، وأنه يوجه معه جيشا ، ثم إن الملك شاور وزراءه فى ذلك فقالوا له : أيها الملك .

... ...

أما الرأى عندنا فأن لا توجه جنداً من جند فارس فى مفاوز العرب . حيث ليس ماء ولا كلأ ، وإنما يشرب فيها الماء من مثل عيون الديكة . فان غورت عليهم ماتوا عطشا . فقال : ما كنت لأخفره بعد أن وعدته ، ولا بد أن أبلغه أمله وأرعى قصده إلى . فقالوا : إن كان الأمر هكذا فان هنا رأيا . قال : وما هو ؟ قالوا : تبعث إلى سجونك فان فيها قوما قد استحقوا القتل ، وإنما حبستهم منة منك عليهم بأرواحهم واستبقاء لهم فتخرجهم . وترأس عليهم رئيسا من غيرهم ذا رأى وحزم وبصر بالحروب . فان ظفروا فانه ملك زدته إلى ملكك ، و إن أصيبوا فهو الذى أردته بهم . فبعث إلى السجون فجمع من فيها يستحق القتل . فكانوا عشرة آلاف رجل . فرأس عليهم وزيراً ، وكان من الأساورة المتقدمين . عالما بالحروب ، وقد أتت عليه مائة وعشرون سنة ، وسقط حاجباه على عينيه كبراً وهرما . فحملهم فى البحر في عشر سفائن . فلما انتهوا إلى سيف عدن قال بعضهم لبعض : علام نغرر بأنفسنا مع ابن الفاعلة ؟ فحملوا أنفسهم على الجسور ، وهى مجازة ثابتة فى البحر . فانكسرت من السفن ثلاث وسلمت سبع إلى عدن فتسامعت به العرب . فاجتمعت إليه ، واجتمعت الحبشة إلى ملكهم مسروق أبرهة فزحف بهم إليهم . فتأهب سيف للقتال وقال للأسوار وهو وهرز : ما الرأى عندك ؟ فقال : الرأى أن نقاتل أو نهلك صبراً . فان السفائن قد انكسرت ، ونحن بحيث لا نتوقع من الملك إمدادا . فعمد إلى عصابة حمراء فشد بها حاجبيه : وتنكب قوسه ، وعبر أصحابه ، وقال لوهرز : كن أنت وأصحابك حجزة ودعنا والقوم . قال ثم إن سيفا خالطهم فاقتتلوا مليا . ثم قال وهرز ، وكان ضعيف البصر : على أى الدواب يقاتل ملكهم ؟ قالوا له على الفيل . فقاتلهم ساعة ثم سأل عنه فقالوا : قد تحول إلى الفرس فقاتلهم ساعة ثم سأل عنه

... ...

فقالوا : قد تحول إلى البغل . فقال : البغل ولد الحمار ، والحمار ذليل . ذل وذل ملكه ورب الكعبة . ثم أسمتوا له سمته . فلما استقر بصره عليه - وقد ربط حاجبيه بحريرة أخذ قوسه ، وكان لا يوترها غيره - ثم نزع فيها وكان على مسروق تاج ، وبين عينيه ياقوتة حمراء فرماه ففلق الياقوتة وتغلغل السهم فى رأسه فخر لوجهه ، وانهزمت الحبشة فجعل الرجل منهم يأخذ البقلة أو العود فيضعه فى فيه يستأمن به ، ويدخل منهم النفر الحائط أو الدور فتقتلهم النساء والصبيان . حتى أتى على آخرهم وكان كسرى عهد إلى وهرز . فقال له : إذا سرت إلى اليمن فظفرت بالقوم فاجمع أهلها وسلهم عن سيف . فان كان من ملوكها كما زعم فتوجه بهذا التاج ، وقد كان أعطاه تاجا وقفازين ، وملكه على قومه . واجب أنت المال ، وإن كان كاذبا فاقتله واكتب إلى لأكتب إليك برأى . فلما تمكن من البلاد جمع أبناء الملوك فقال : كيف سيف ؟ فقالوا ملكنا وابن أملا كنا أدرك بثأرنا ، فتوجه وملكه ، وكتب إلى كسرى بذلك فأقره باليمن ومنهم الذين يعرفون بالأبناء بصنعاء إلى اليوم .

[المعنى] أن سيف بن ذى يزن ملك اليمن لما كانت نفسه كبيرة ، وهمته عالية ، لم يرض أن تحتل الأحباش وطنه وتتغلب على بلاده وهو من أبناء ملوكها فحرم على نفسه المقام بوطن ذليل ، واتخذ جميع الأسباب الممكنة وغير الممكنة فى إخراج المحتلين لوطنه على غير هدى ، ولم تهدأ ثائرته حتى رماهم بجيش سفاك ، أهلك عاهلهم ، وشتت جمعهم ، واستأصل شأفتهم ، ثم جلس على سرير ملكه فى محراب غمدان من صنعاء المزدان بالصور المرمرية الفخمة ، والأشكال البديعة ، متوجا بتاج العز والفخار ، ممتعا بعظيم الإجلال وآيات الإكبار :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

ثُمَّ ابْنُ هِنْـــدٍ بَاشَرَتْ نِيرَانُهُ يَوْمَ أُوَارَاتٍ تَمِيماً بِالصَّلاَ (١)

يقصد : ألا بدع فى أن أركب الصعاب ، وأتخذ الحراب، لأنال ما أتمنى كما فعل ذوو الهمم العلياء قبلى .

(١) قوله باشرت : أى خالطت . يوم أوارات : يوم معروف من أيام العرب وأوارات : اسم موضع وقوله : تميما : يعنى قبيلة ، والنسبة إليها تميمى . الصلا : وهج النار ، وهو مقصور إذا فتحت ، وإذا كسرت الصلا مددته فقلت الصلاء . ابن هند : هو عمرو عم النعمان بن المنذر ، وهو الذى يلقب بمضرط الحجارة وهو الذى قتل طرفة العبد .

﴿ قصة عمرو بن هند مع بنى تميم ﴾ : وكان عمرو بن هند شديد البأس وكان عم النعمان بن المنذر وكان له أخ مسترضع فى بنى تميم فخرج يوما فمر يتصيد بإبل لرجل من بنى تميم فرأى فيها ناقة حسنة فرماها فعقرها فجاء صاحبها فلما رآها معقورة وثب عليه فقتله فنذر عمرو بن هند أن يقتل من بنى تميم مائة بدلا منه، فغزاهم يوم أوارات فسبى ما أصاب فى بلادهم ، وأقبل يقتلهم على الثنية ، وآلى ليقتلنهم حتى يبلغ الدم إلى الأرض وليحرقنهم فقيل له أيها الملك لترفعن أو قد أفنيتهم فقال : والله لا تركتهم أو تأتونى بمائة رجل من خيارهم فطلبوا فلم يوجد منهم إلا تسعة وتسعون رجلا . فلما جىء بهم أمر بحفر زبية فاحتفرت له ثم قال أضرموا ناراً والقوا فيها الحطب فأججت نار عظيمة فقال ألقوا فيها رجلا رجلا وبقى واحد من نذره فبينما هم كذلك ، إذ هم برجل راكب قد طلع عليهم ، وكان من البراجم ، فأبصر الدخان ووجد قتار لحومهم على بعد فظن أنه طعام يصنع للناس . فأقبل نحوهم فلما بلغ ورأى ما رأى جزع . فقال عمرو : انظروا من الرجل فأخذ فأتى به إليه فقال من أنت؟ فقال رجل من البراجم فقال عمرو :

« إن الشقى وافد البراجم »

مَا اعْتَنَّ لِى يَأْسٌ يُنَاجِى هِمَّتِى إِلاَّ تَحَدَّاهُ رَجَاءٌ فَاكْتَمَى[1]
أَلِيَّةً بِالْيَعْمُلَاتِ يَرْتَمِى بِهَا النَّجَاءُ بَيْنَ أَجْوَازِ الْفَلَا[2]

ثم قال ألقوه فى النار ليتم نذرى ، فألقى فيها فتم نذره ، والبراجمة من بنى تميم .

[المعنى] إن لى فى عمرو بن هند عم النعمان بن المنذر ملك العرب لأكبر أسوة ، فقد عمل على الوفاء بنذره ، حين الأخذ بثأره ما لم يعمله شجاع قبله ، فحرق من بنى تميم خيارهم ، وأسال من نفر العشيرة دماءهم . أخذا بثأر أخ له فى الرضاع ، وكانوا لسوء طالعهم قد اعتدوا عليه . وإنى معه على حد قول القائل :

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

(١) ما اعتن : أى ما اعترض . وتحداه : اعتمده وقصده . فاكتمى : استتر وتغطى ، ومن ذلك سمى الشجاع كميا لاستتاره بسلاحه ، وقيل بل سمى كميا لأنه يكمى شجاعته أى يسترها فلا يظهرها إلا عند الحاجة إليها .

(٢) قوله : ألية باليعملات : أى قسما باليعملات ، والنصب على المصدر كأنه قال أولى ألية باليعملات ، أو آليت ألية باليعملات ، واليعملات : جمع يعملة وهى الناقة الصلبة الشديدة ، ويقال للذكر يعمل . النجاء : السرعة . والأجواز : جمع جوز ، وجوز كل شئ وسطه ، الفلا : جمع فلاة ، وهى الصحراء وكتابتها بالألف لأنك تقول فى الجمع فلوات .

[المعنى] لم يعرض لى يأس من بلوغ أملى إلا عارضه ودافعه رجاء أقوى منه جانبا يمحوه من الوجود الظاهرى و يستره عن العيان . وأقسم بالإبل القوية العاملة التى يرتمى أى يتتابع بها النجاء أى سرعة العمل فى حمل الأثقال وما إليها من قطع المسافة للرحل بين أوساط الصحارى سهلة أو وعرة

خُوصٍ كَأَشْبَاحِ الْحَنَايَا ضُمَّرٍ يَرْعُفْنَ بِالْأَمْشَاجِ مِنْ جَذْبِ الْبُرَا[1]

يَرْسُبْنَ فِي بَحْرِ الدُّجَى وَ بِالضُّحَى يَطْفُونَ فِي الْآلِ إِذَا الْآلُ طَفَا[2]

---

(١) الخوص ، الإبل الغائرة العيون من الهزال ، وقيل الخوص : الضيقة العيون . لأن الخوص : ضيق العيون ، والفعل منه خوص يخوص خوصاً والذكر أخوص ، والأنثى خوصاء . الأشباح : الأشخاص واحدها شبح . الحنايا : القسى واحدها حنية . شبه الابل بها لضمرها . وضمر : جمع ضامر وهو المهزول وهو اللاحق البطن أى الضامر البطن كما قال حميد الأرقط :

* لاحق بطن بقرى سمين *

أى ضامر . يرعفن : أى يسلن ، وهو مأخوذ من الرعاف وهو سيلان الدم من الأنف . الأمشاج : الأخلاط واحدهم مشج ، وهو ما يسيل من أنوف هذه النوق التى نعتها بخوص من المختلط المتغير بالدم وقوله . من جذب : أى من سوق وفيه لغتان جذب وجبذ على التقديم والتأخير ويقال جبذ وجذب إذا ساق ، وفلان شديد الجذب والجبذ أى السوق . البرا : جمع برة ، وهى الحلقة التى تكون فى أنف البعير من صفر أوحديد أوفضة . فان كانت من شعر أو صوف فهى خزامة ، وإن كانت من عود فهى خشاش فان كانت من بقية حبل فهى عران .

(٢) يرسبن يغبن، الرسوب: الغوص فى الماء والمغيب فيه إلى أن يبلغ قعره . بحر الدجى ـ هنا مثل ـ الدجى : الظلة وهو جمع واحدها دجية ، وإنما يريد أن هذه النوق تغيب فى ظلمة الليل وتظهر فى خلال النهار . الضحى : بضم الضاد مقصور هو طلوع الشمس واستشراقها ، وأما الضحاء بفتح الضاد والمد فهو فوق ذلك وهو القائلة . يطفون : أى يعلون ، والطافى فوق الماء : المرتفع كما قال الشاعر :

أَخْفَافُهُنَّ مِنْ حَفًا وَمِنْ وَجَى مَرْثُومَةٌ تَخْضُبُ مُبْيَضَّ الْحَصَا(١)
يَحْمِلْنَ كُلَّ شَاحِبٍ مُحْقَوْقِفٍ مِنْ طُولِ تَدْآبِ الْغُدُوِّ وَالسُّرَى(٢)

فما سبق القيسى من سوء سيرة ولكن طفت علماء غرلة خالد

الآل : ما رفعته الشمس غدوة، والسراب : إنما يكون فى انتصاف النهار كأنه ماء وليس بماء قال الله عز وجل : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) وطفا : ارتفع يقال طفا يطفو فهو طاف .

[المعنى] أقسم بالإبل العاملة المذكورة فى البيت قبله ، الضيقة العيون حديدة الإبصار بها، الضامرات الجسم كالقسى الصلبة والبطن أيضا لتكون خفيفة فى علفها وسيرها ، يسيل من أنفها مخاط ممزوج بدم من جذب السائقين من أنوفها المخزومة بالحلقات ، اللاتى تغيب فى ظلمة الليل فى مسراها بالعنق الفسيح ، وتظهر أثناء النهار فى وقت تظهر فيه الشمس فى مكان قطعت وراءه أمكنة نائية ، فتكون كغواص تعمق فى قاع البحر وغاب عن الأعين ثم طفا على وجه الماء وظهر للناظرين .

(١) الأخفاف : للإبل بمنزلة الحوافر للخيل . الجفا : مقصور رقة أخفاف الإبل وحافر الدابة من كثرة المشى . الوجى : بالجيم وفتح الواو مقصور وجع فى الرجل يصيب الرجل من الحفاء يقال من ذلك وجى الرجل يوجى وجى فهو وج . مرثومة ، مشقوقة من الحجارة وقيل مكسورة، وتخضب: تصبغ . الحصا : جمع حصاة مثل قطا وقطاة .

(٢) الشاحب : المتغير اللون من السفر أو التعب أو سوء الحال. المحقوقف : المعوج الذى قد حنى ظهره يقال احقوقف يحقوقف احقيقافا إذا انحنى. التدآب :

بَرٍّ بَرَى طُولُ الطَّوَى جُثْمَانَهُ فَهْوَ كَقِدْحِ النَّبْعِ مَخْنِيُّ الْقَرَا(١)

يَنْوِي الَّتِي فَضَّلَهَا رَبُّ الْعُلَا لَمَّا دَحَا تُرْبَتَهَا عَلَى الْبُنَى(٢)

حَتَّى إِذَا قَابَلَهَا اسْتَعْبَرَ لَا يَمْلِكُ دَمْعَ الْعَيْنِ مِنْ حَيْثُ جَرَى(٣)

المداومة والعادة يقال دأب يدأب دأباً ودؤوباً وتدآباً . السرى : سير الليل

[المعنى] أخفاف الابل المقسم بها مشقوقة من شدة ماعرض لها من تتابع السير الذى لكثرته وطول مسافته أحفاها وأوجى أرجلها ، فتشققت أخفافها وسال منها أثناء سيرها دم منها يخضب مبيض الحصى ، وهن يحملن الرحل الدائبين المسير ، الشاحبين الألوان المتقعين الوجوه ، لتعبهم الملازم لسفرهم الدائم ، المنحنية أظهرهم لتعودهم على الانحناء أثناء سيرهم على أظهرها ليل نهار وهزهن للراكبين عليها مما يجعل التصوب أكثر من التصعد ، والغدو : أول النهار . والمقصود هنا السير عليها نهارا بقرينة السرى وهو السير ليلا .

(١) قوله بر : أى مطيع يقال رجل بر : أى مطيع لله عز وجل ، والجمع أبرار ، وهو نعت للشاحب فلذلك خفض . برى : هزل وذهب لحمه ، ومنه برى القلم أى إضعافه وترقيقه وتحديد طرفه . الطوى الخمص : وهو الجوع يقال طوى يطوى طوى قال عنتره :

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

جثمانه : جسمه . القدح : عود صلب تعمل منه السهام . النبع : شجر تعمل منه القسى واحدها نبعة . المخنى : المعوج . القرا : الظهر .

(٢) ينوى : يقصد ، مأخوذ من النية ، والنية القصد . وقوله التى فضلها رب العلا : يعنى مكة . دحا : بسط ، البنى : جمع بنية وهو الشىء المبنى .

(٣) استعبر : بكى ، وهو مأخوذ من العبرة وهى الدمعة وقوله : قابلها : يعنى الكعبة فالهاء فى قابلها راجعة على الكعبة وهى بيت الله . انثنى : رجع بعد

ثُمَّتَ طَافَ وَاثْنَى مُسْتَلِمًا ثُمَّتَ جَاءَ الْمَرْوَتَيْنِ فَسَعَى[1]
وَأَوْجَبَ الْحَجَّ وَثَنَّى عُمْرَةً مِنْ بَعْدِ مَا عَجَّ وَلَبَّى وَدَعَا[2]

طوافه إلى الاستلام الاستلام : تقبيل الحجر الأسود . ثمت : بمعنى ثم إلا أنهم يزيدون التاء فيها كما يزيدونها بمعنى التأنيث فى قولهم : قامت وكذلك يفعلون فى رب فيقولون ربت .

(١) قوله طاف : يعنى بالبيت . اثنى . انعطف . قوله : مستلماً أى ماسا الحجر الأسود بيده أو بفمه وهو مأخوذ من السلمة وهو الحجر ووزنه مفتعل وجمع السلمة سلام . قوله ثمت جاء المروتين : يريد بالمروتين الصفا والمروة ، وهما موضعان من مناسك الحج، والمناسك : المواضع التى يتقرب فيها إلى الله بصالح العمل ، وأصل الصفا: الحجارة الصلبة، والمروة الحجارة المتينة وواحدة المرو مروة ، وغلب المروة على الصفا فقال المروتين لأنها أشهر من الصفا ، سماهما باسم واحد كما تقول العرب القمران يعنون الشمس والقمر . وقوله فسعى : أى مشى والسعى المشى ، ويكون سعى أيضاً بمعنى عمل قال الله عز وجل ذكره : (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) .

[المعنى] أن هذا البر قاصد مكة برحيله على الإبل المقسم بها آنفا إذا وصل مكة المشرفة لم يملك دمعه حتى يسيل لمزيد شوقه إلى ما فيها من شعائر الله ، ثم طاف بالبيت ملبيا تائبا مستغفرا ، ورجع مستلما الحجر الأسود بيده يقبله بفمه ، ثم بعد مطافه سبعا سعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط مقتديا بالحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم .

(٢) قوله وأوجب الحج : أى ألزمه نفسه . الحج : القصد وفى تسميته حجاً ثلاثة أقوال قيل هو من حججت فلاناً إذا قصدته، فسمى حج البيت حجا لقصد الناس اليه، وقيل الحج الزيادة فسمى الحج حجاً لعودتهم إلى البيت فى كل عام مرة بعد مرة قال الشاعر :

ثُمَّتَ رَاحَ فِي الْمُلَبِّينَ إِلَى حَيْثُ تَحَجَّى الْمَأْزِمَانِ وَمِنَى[1]

رأشهد من عوف حلولا كثيرة يحجون بيت الزبرقان المزعفرا

وقوله وثنى عمرة : أى ألزم نفسه مع الحج عمرة فجاءت بعد الحج ثانية والعمرة : فى كلام العرب الزيارة ، والمعتمر فى غير هذا الموضع المعتر . قال الشاعر :

يهـــل بالفرقد ركبانها كما يهل الراكب المعتمر

وقوله : من بعد ماعج : أى رفع صوته بالدعاء . التلبية: قولهم لبيك اللهم لبيك لاشريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك، وأصله عند الخليل وسيبويه من ألبيت بالمكان إذا أقمت به ، ولبيت أيضا لغة،قال الخليل وسيبويه : ثم قلبوا الباء الثانية ياء استثقالا . كما قالوا تظنيت من الظن. والأصل تظننت ، وكذلك قالوا لبيت ، والأصل لبيت فكان معنى قولهم لبيك أنا مقيم على طاعتك . قد أجبتك إلى ما دعوت ثم ثنوه للتوكيد فقالوا لبيك أى أقمنا على طاعتك إقامة بعد إقامة . لأنه كان قبل أن يثنى لب فجاؤوا بالياء للتثنية ، ولم يستعمل مفردا ، وروى عن الخليل قول آخر وهو أنه مأخوذ من قولهم أم لبة : أى عاطفة على ولدها فيكون معنى لبيك على هذا القول : إقبالا عليك يا رب وانعطافا إلى المكان الذى دعوت إليه فأجبنا مسرعين ، ويممنا مهطعين . قوله فى الملبين : الملبون جمع ملب ، والملبى هو المجيب بالتلبية .

(١) قوله راح : خرج بالرواح وهو الخروج بالعشى ، والغدو أول النهار : قال الله عز وجل (غدوها شهر ورواحها شهر) . المأزمان جبلان بين المزدلفة ومنى . منى : هو محل رمى الجمار بمكة . تحجى : أى أقام . يقال تحجى بالمكان ، وحجى : إذا أقام فيه ولبث .

[المعنى] وألزم نفسه بالحج وقام بأداء هذا الواجب المقدس على كل

ثُمَّ أَتَى التَّعْرِيفَ يَقْرُو مُخْبِتاً مَوَاقِفاً بَيْنَ الْآلِ فَالنَّقَا(١)
وَاسْتَأْنَفَ السَّبْعَ وَسَبْعاً بَعْدَهَا وَالسَّعْيَ مَا بَيْنَ الْعِقَابِ وَالصُّوَى(٢)

مستطيع ثم أردفه بالعمرة الواجبة كذلك بعد أن رفع عقيرته بالدعاء حين طوافه ، ولبى بدعاء التلبية إجابة لداعى ربه وأسوة بما فعله رسوله المطهر ، ثم ذهب مع الملبين إلى رمى الجمار بمزدلفة وبات بمنى لتمام هذه الشعيرة التى لها مغزاها الروحى ، حيث القصد برمى الهدف المخصوص بالجمار السبع الواردة : إنما هو قذف كل ما يجر إلى الفساد ، وسوء المغبة ، من أخلاق مرذولة ، وعادات منكرة ، فى شخص إبليس أس الوساوس السيئة ، والخواطر العقيمة ، وليس الهدف إبليس ولا محل حلوله فيه ، وإنما هو شاخص لابد منه للقاذف حيث يرمى إلى غرض يتذكر به من أخذ على نفسه العهد بالغواية فيما حكى الله تعالى عنه بعد طرده من رحمة ربه قال : (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) .

(١) التعريف وعرفات واحد ، وهو اسم موضع من مناسك الحج . يقرو : يتبع المواضع ويدخل من موضع إلى موضع ، المخبت : المتواضع المخلص لله تعالى . قال الله عز وجل (وبشر المخبتين) . ألال : موضع بعرفات يقوم فيه الإمام بالناس يوم عرفة . النقا : الرمل وهو مقصور يكتب بالألف على قول من قال فى تثنيته نقوان ، ويكتب بالياء على قول من قال نقيان ، وأما النقاء ممدوداً فمصدر الشيء النقى .

(٢) قوله استأنف : أى ابتدأ . السبع : يعنى رمى الجمار السبع . وسبعا بعدها : أراد السبع الثانية التى تلى الأولى وقوله السعى : يعنى المشى . العقاب : جمع عقبة . الصوى : الكدى ، وهى جمع صوة ، وقيل الصوى : الحجارة التى تنصب على الطريق ليهتدى بها .

وَرَاحَ لِلتَّوْدِيعِ فِيمَنْ رَاحَ قَدْ أَحْرَزَ أَجْرًا وَقَلَى هُجْرَ اللَّغَا(١)

[المعنى] ثم بعد عقده النية على مناسك الحج والعمرة جاء عرفة ليقف بهذا الموضع المقدس والركن الأساسى فى الاعتداد بالحج ، وهو يقرو أى يتتبع أماكن المناسك العظام ، والمشاعر الحرام ، مخبتا طائعا مخلصا لمولاه العظيم ، واقفا بين الموضعين المعروف أحدهما بألال وهو بعرفة ، وثانيهما بالنقا ، وهو موضع رملى قريب من ألال ، ثم ابتدأ رمى الجمار السبع بمنى فى اليوم الأول من عيد الأضحى المبارك ، وأتبعها بسبع أخرى ، وتعرف بجمرة العقبة ، ساعيا بين العقاب جمع عقبة ، والصوى ، وهي العلامات الموضوعة لتعريف الحجاج مواطن العقاب المطلوب رمى الجمار إليها ، أوهى الأرض الصلبة الغليظة قال فى المنجد : الكدية : الأرض الصلبة الغليظة ـ الصفاة العظيمة الشديدة جمعها كدى اه .

(١) قوله : وراح للتوديع : أى لتوديع البيت الحرام ، وكذلك يفعل الحاج بعد الفراغ من رمى الجمار والذبح والحلق يذهب إلى البيت مودعا فيطوف به سبعا ، ويسعى بين الصفا والمروة سبعا ، ويرجع إلى منى فيقيم بها ثلاثة أيام ، ومنهم من يتعجل فى يومين ثم يتفرقون كما قال الشاعر :

ولله عينا من رأى من تفرق أشت وأنأى من فراق المحصب
فريقان منهم جازع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كبكب

وقوله : أحرز أجرا : أى ملكه وأصابه . قلى : بغض ، ومنه قوله جل وعلا : (ما ودعك ربك وما قلى) وتصريفه قلى يقلى قلاء . الهجر : بضم الهاء القبيح من الكلام ، ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنى كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا » يقال منه هجر الرجل يهجر هجرا إذا تكلم بكلام قبيح . والاسم منه الهجر ، وأما الهجر بفتح الهاء فهو الهذيان فى القول . كما يفعل صاحب الموم والبرسام ، والهجر أيضا

بِذَاكَ أَمْ بِالْخَيْلِ تَعْدُو الْمَرَطَى نَاشِزَةً أَكْتَادُهَا قُبَّ الْكُلَى (١)

بفتح الهاء القطع والصريمة . تقول هجرت فلانا إذا قطعته أهجره هجرا فيهما جميعا . اللغا : هو الباطل من الكلام ، وفيه لغتان لغو ولغا . قال الله عزوجل : (والذين هم عن اللغو معرضون) .

(١) قوله : بذاك أم بالخيل : هذه الباء متعلقة بقسم محذوف تقديره أقسم بذاك أم بالخيل . تعدو : بالعين الغير المعجمة أى تجرى . يقال عدا يعدو عدواً إذا جرى . المرطى : ضرب من العدو وهو السهل منه . ناشزة : بالزاى المعجمة أى مرتفعة ، ومنه قولهم قعدت على نشز من الأرض أى مرتفع ، ومنه قوله جل ذكره : (وإذا قيل لكم انشزوا فانشزوا) أى ارتفعوا . أكتادها جمع كتد ، وهو العظم الذى يكون فى رأس الكتف . وقيل الكتد ما بين الكاهل ووسط الظهر . قب الكلى : أى ضامرة الكلى ، وقب : جمع أقب .

[المعنى] ثم ذهب بعد رميه الجمار بمنى مع الراجعين إلى البيت الحرام ليطوف به سبعا طواف الوداع وسعى كذلك بين الصفا والمروة وقد أحرز أى ملك من الله أجرا عظيما متى هجر فحش القول ولغو الكلام ، ثم انتقل إلى كلام جديد فقال : أأقسم بذاك وهو ما تقدم له ذكره من الإبل التى تحمل حجاج بيت الله الحرام المخلصين الطائعين لربهم ، أم أقسم بالخيل التى تعدو أى تجرى جريا مشجعا يسمى بالمرطى حال كونها ناشزة أى رافعة مقدم أكتافها أمارة الاجتهاد فى العدو ، مع نشاط الأجسام ، ومهارة الركاب فى تنشيط خيولهم ، أو المعنى رافعة عظام ظهرها المقابل لصدورها أمارة استجماعها لأعصابها القوية ، واستفزازها لقطع المسافة بلا فتور أو تلكؤ ، وحال كونها ضامرة الكلى كناية عن ضمور بطونها مما يساعد على سرعة العدو وبعد التعب والصبر على استمرار المسير ـ وقوله فى الشرح

شُعْثاً تَعادَى كَسَرَاحِينِ الْغَضَا مَيْلَ الْحَمالِيقِ يُبَارِينَ الشَّبَا[1]

يَحْمِلْنَ كُلَّ شَمَرِّيٍّ بَاسِلٍ شَهْمِ الْجَنَانِ خَائِضٍ غَمْرَ الْوَغَى[2]

كما يفعل صاحب الموم والبرسام أى كالهذيان الحاصل من المصاب بهذا الداء الباطنى الذى يؤثر على القوى العقلية بعض التأثير فيهرف لسان المصاب به بما لا يعرف ، والموم والبرسام مترادفان ، وهو التهاب فى الحاجز بين الكبد والقلب قال فى المنجد : برسمه : أحدث فيه البرسام،وهو التهاب فى الحجاب الذى بين الكبد والقلب ، وبرسم بالبناء للمفعول أصيب بالبرسام فهو مبرسم . ميم موماً الرجل أصابه الموم وهو البرسام ، أو أشد الجدرى الذى يجعل الجسم كله قرحة واحدة فهو مموم اه .

(١) شعثاً : مقربين من الله عز وجل ، وقيل الشعث الثائرة الأعراف أى المرتفعة شعر الاعراف . الأعراف : جمع عرف . وتعادى : تسابق أراد تتعادى . سراحين : ذئاب ، الواحد سرحان . الغضا : شجر يدوم جمره . ميل الحماليق : أى مائلة العيون . يبارين : يعارضن . الشبا : مقصور جمع شباة ، وشباة كل شىء حده ، يريد بها هنا أطراف الرماح .

(٢) قوله : يحملن : يريد الخيل . الشمرى والشمر : الماضى فى الأمور ، وهو مأخوذ من التشمر ، يريد كل مشمر للملاقاة أقرانه مشتد لذلك . الباسل : الشجاع مشتق من البسل وهو الحرام ، فكأن الباسل حرم على أقرانه الدنو منه لشجاعته وشدته،وقيل الباسل المر ، وقد بسل الرجل يبسل بسالة إذا صار مراً . شهم الجنان أى حاد القلب . الجنان : بفتح الجيم القلب وقوله : خائض : أى داخل والغمر الماء الكثير الذى يغطى من دخله ، الوغى : صيحة الناس فى الحرب إلا أنهم سموا الحرب وغى باسم الصياح الذى يكون فيه .

يَغْشَى صَلاَ الْحَرْبِ بِحَدَّيْهِ إِذَا كَانَ لَظَى الْحَرْبِ كَرِيهَ الْمُصْطَلَى (١)

لَوْ مُثِّلَ الْحَتْفُ لَهُ قِرْنًا لَمَا صَدَّتْهُ عَنْهُ هَيْبَةٌ وَلاَ انْثَنَى (٢)

[المعنى] : أقسم بالخيل المذكورة حال كونها شعثا أى رافعة شعور أعرافها الكائنة على أعناقها ، أمارة شدة التحفز والقوة ، حال كونها تتعادى أى تتسابق فى عدوها كذئاب الغضا ، وكنى به عن الصحراء حيث لا ينبت إلا فيها، وذئاب الغضا قوية لجفاف منبته وصلابة أحجارها، والجسم إذا لم تمسسه الرطوبة صلب كالحديد . وحال كونها ميل الحماليق أى مائلة العيون ، كناية عن شدة التطلع إلى قطع الأمام وبعد النظر وشدة الاحتراس ، يبارين الشبا ، أى يسابقن أطراف الرماح فى الحدة وقوة النفوذ ، يحملن كل شمرى أى ماضى العزيمة ، باسل شجاع ، ثابت القلب ، قويه، يخوض غمار الحرب، غير هياب ولا وكل .

(١) يغشى : يدخل . الصلا : مفتوح مقصور حر النار فاذا كسر أوله مد فقيل صلاء . لظاها : أيضاً حرها .

(٢) قوله لو مثل الحتف . مثل : صور . الحتف الهلاك . القرن : الذى يقارنك فى بطش أو قتال أو علم . صدته : منعته ، ومنه قوله تعالى : (وصدوكم عن المسجد الحرام) وقوله . هيبة : أى مخافة، والهيبة أن يعظم الإنسان فى عينك وتهابه أى تخافه . انثنى : رجع ، والانثناء الرجوع عن الشىء والانصراف عنه .

[المعنى] يدخل هذا الفارس فى نار الحرب مناضلا بحد سيفه ونصل حرابه حتى إذا كان حر الحرب لا يطاق لأكثر المناضلين ، وحتى لو مثل وصور الموت خصما له وندا لما فر منه ولا توانى عن منازلته ومقارعته على حد قول الشاعر :

لبث أخا الهيجا إذا الهيجا حمل لا بأس بالموت إذا الموت نزل

وَلَوْ حَمَى الْمِقْدَارُ عَنْهُ مُهْجَةً لَرَامَهَا أَوْ يَسْتَبِيحَ مَا حَمَى (١)
تَغْدُو الْمَنَايَا طَائِعَاتٍ أَمْرَهُ تَرْضَى الَّذِي يَرْضَى وَتَأْبَى مَا أَبَى (٢)

---

(١) حمى : يحمى حماية يمنع . المقدار : هو القدر يعنى قدر الله عز وجل . المهجة : النفس وجمعها مهج . رامها : طلبها وأدركها . يستبيح : يدرك ذلك الشيء نافذا أمره فيه ، ونصب يستبيح بأو لأن أو هنا بمعنى حتى ، وأو إذا كانت بمعنى حتى أو بمعنى إلا أن كان الفعل بعدها منصوباً . فاما كونها بمعنى حتى فمثل هذا الذى ذكرنا ، وأما كونها بمعنى إلا أن فمثل قولك لأضربنك أو تقرأ أى إلا أن تقرأ ، ومنه قول امرىء القيس :

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وإن وقعت أو فى موضع لا يصح فيه إلا أن أو حتى كان الرفع لاغير كقولك أتجلس أو تقوم . أتزورنا أو تقطعنا .

(٢) تغدو : تأتى بالغدوة مبكرة اليه ، ويروى تعدو بالعين غير المعجمة ومعناه تسرع إلى طاعته وتبادر إلى إرادته . تأبى : تكره ولا تريد وتصريفه أبى يأبى إباء وإباية فهو آب .

[المعنى] لو حمى القدر من هذا الفارس نفسا لطلب إدراك وطره فيها حتى يستبيح ما حماه القدر منه ، وهو فى هذا المعنى مجترىء جرأة أهل العصر من الكتاب غير المحافظين بيد أن المعنى المقصود على الكناية أن هذا الفارس لقوة بأسه ورباطة جأشه لا يرضى أن يغالب ، ولا أن يقف عند حد . يؤيد ذلك قوله بعده : تغدو المنايا طائعات أمره الخ يعنى أن أرواح المناضلين تصبح فى حومة الوغى فى قبضة يده إن شاء سرحها ، وإن شاء قضى عليها فيمتنع الموت عمن أراد حياته وينزل بمن أراد النزول به .

بَلْ قَسْماً بالشَّمِّ مِنْ يَعْرُبَ هَلْ لِمُقْسِمٍ مِنْ بَعْدِ هٰذَا مُنْتَهَى (١)

هُمُ الْأُلَى إِنْ فَخَرُوا قَالَ الْعُلَا بِيَ امْرِئٌ فَاخَرَكُمْ عَفْرُ الْبَرَى (٢)

هُمُ الْأُلَى أَجْرُوا يَنَابِيعَ النَّدَى هَامِيَةً لِمَنْ عَرَى أَوِ اعْتَفَى (٣)

---

(١) قوله : بل قسما : أى يميناً . الشم : الطوال وقيل أشراف الناس . يعرب قبيلة من العرب تنسب إلى يعرب بن يشجب بن قحطان . المقسم : الحالف . منتهى : غاية .

(٢) قوله : هم الألى : بمعنى هؤلاء . العلا : الفخر والرفعة . بنى امرئ : أى بفمه . عفر الأرض : وجهها . البرى : مقصور التراب يقال ماعلى عفر الأرض مثله أى وجهها .

[المعنى] بل أقسم بأشراف الناس المعروفين من سلامة يعرب بن يشجب ابن قحطان أصل العرب ، وليس لمقسم بأشراف الناس بعد هذا القسم غاية أن ما أبغى الثناء عليهم،وأذكر خصالهم الحميدة،هم الألى أى الذين إن طلبوا الفخر على غيرهم قال الفخر نفسه بلسان الإنسان:لقد فاخركم عفر البرى،أى خير من ظهر على وجه العفراء وهى البسيطة والأرض الممهدة للسكنى والانتفاع .

(٣) الينابيع : العيون التى تجرى بالماء فى الأرض . قال الله جل ذكره : (فسلكه ينابيع فى الأرض) واحدها ينبوع قال الله جل ذكره : (حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) . الندى : الجود ، وهو الكرم هامية : سائلة يقال همى المطر إذا سال . عرا : قصد وتعرض للطلب يقال : عرانى واعترانى إذا تعرض لسؤالى . المعتر : المعترض ومنه قول الله جل ذكره : (وأطعموا القانع والمعتر) والقانع : هو السائل والمعتر : المعترض ، وقوله : أو اعتفى : أى طلب من غير تعرض ، والمعتفى الطالب للقرا والرفد ، وجمعه معتفون ، ويقال فيه أيضاً عاف وعفاة .

هُمُ الَّذِينَ دَوَّخُوا مَنِ انْتَخَى وَقَوَّمُوا مِنْ صَعَرٍ وَمِنْ صَغَا[1]
هُمُ الَّذِينَ جَرَّعُوا مَنْ مَا حَلُوا أَفَاوِقَ الضَّيْمِ مُمَرَّاتِ الْحَسَا[2]
أَزَالُ حَشْوَ نِثْرَةٍ مَوَضُونَةٍ حَتَّى أُوَارَى بَيْنَ أَثْنَاءِ الْجُثَى[3]

---

(١) قوله الذين دوخوا من انتخى : أى أذلوا ، يقال : دوخت فلاناً إذا أذللته ، وداخ هو فى نفسه إذا ذل . إنتخى : وهو افتعل من النخوة . الصعر : أيضاً التكبر ، وأصل الصعر الميل ، وهو أن يميل الإنسان خده من التكبر قال الله جل ذكره : (ولا تصعر خدك للناس) أى لا تتكبر وقرئ ولا تصعر، تقول رجل أصعر وامرأة صعراء. الصغا : الميل قال الله جل ذكره : (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى ولتميل .

[المعنى] أن الممدوحين هم الذين جعلوا ينابيع الكرم تفيض بالخيرات وأنواع البر ينهل منها من قصد القرى والضيافة ، ومن لم يقصد بل وصل إلى رحابهم عفوا دون تعرض منه لذلك، وهم الذين أذلوا من تكبر على الناس ، وشمخ بأنفه ، واعتز بقوته وسلطانه بجار وظلم ، وحملوا كل جبار يصعر خده ويعوج فى مشيته على الاعتدال حيث يرى نفسه بجوار ما هم عليه من العزة وكرم الخلق لا يقام له وزن ، ولا يسمو له قدر ، إلا إذا اعتدل كما اعتدل الأعز منه جانبا ، وأسمى شرفا ، وأكرم موئلا .

(٢) جرعوا : سقوا يقال : جرعت فلاناً الشراب إذا سقيته إياه مقطعاً على مهل طوعا كان أو كرها . ما حلوا : خاصموا وقيل : خادعوا. الأفاوق : شرب مقطع ، نفس بعد نفس . الضيم : الذل الحسا : جمع حسوة ، وهو أخذ الشئ بفمك متجرعاً له قليلا قليلا .

(٣) قوله أزال : هو جواب القسم فى قوله بل قسما بالشم، وأراد لا أزال والعرب تقول والله أفعل كذا بمعنى لا أفعل مستعمل إسقاطها فى الجواب

وَصَاحِبِيٍّ صَارِمٌ فِي مَتْنِهِ ... مِثْلُ مَدَبِّ النَّمْلِ يَعْلُو فِي الرُّبَى (١)

أَبْيَضَ كَالْمِلْحِ إِذَا انْتَضَيْتَهُ ... لَمْ يَلْقَ شَيْئًا حَدُّهُ إِلَّا فَرَى (٢)

قال عز وجل : (تفتؤ تذكر يوسف) أى لا تفتؤ وقال امرؤ القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ... ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أراد لا أبرح .وقوله : حشو نثرة موضونة : أى لابس نثرة،لأن الحشو ما حشى به أى أدخل فى جوفه فكأنه صار حشواً إذا لبسها . النثرة الدرع الواسعة . وكذلك النثلة . الموضونة : المحكمة النسج قال الله عز وجل : (سرر موضونة) . أوارى : أغطى ، والأثنا جمع ثناء ، وهو ما تثنى منها أى تراكب وانعطف على بعض . الجثى : جمع جثوة وهو التراب المجتمع .

[المعنى] وهم الذين حملوا من خاصمهم أياً كان شأنه فى القوة والمنعة على أن يتجرع شراب الضيم أى الذل صاغرا ، يشربه ليس سائغا ، مقطعا نفسا بعد نفس ، كما يشرب المحتسى الحساء قليلا قليلا - ثم قال فى جواب القسم المتقدم:إنى لا أزال لابسا درع مديحهم المحكم النسج ، أسير إحسانهم ، حتى أوارى وأدفن بين طيات الثرى ، كناية عن مداومة مديحهم وإطرائهم مدى الحياة

(١) قوله : وصاحبى : سيفه وفرسه . الصارم : القاطع يعنى السيف ، وجمعه صوارم.فى متنه : أى فى ظهره يعنى متن السيف،يريد بذلك وسطه . مدب النمل ودبيبه:مشيه ، هو من دب يدب مدبة ودبا ودبيباً اذا مشى يريد فرند السيف وهو جوهره الذى تراه كأثر النمل . يعلو : يرتفع الربى : الكدى ، وهى جمع ربوة .

(٢) انتضيته : جردته من غمده . وقوله : فرى : قطع ، والفرى القطع وتصريفه فرى فريا .

كَأَنَّ بَيْنَ عَيْرِهِ وَغَرْبِهِ مُفْتَأَدًا تَأَكَّلَتْ فِيهِ الْجُذَى (١)

يُرِى الْمَنُونَ حِينَ تَقْفُو إِثْرَهُ فِي ظُلَمِ الْأَكْبَادِ سُبْلاً لَا تُرَى (٢)

[المعنى] لا أزال حشو درعهم معتمدا صاحبيّ الذين هما سيفى الصارم القاطع ، وفرسى عظيم التركيب عالى النواحى الموصوف بمشرف الأقطار الخ فى الأبيات بعد ـ ثم وصف سيفه المذكور بأن فى متنه أى ظهره والمقصود وسط جوهره ما يشبه طريق النمل فى مشيها إلى الربى جمع ربوة ـ وهى ما ارتفع من الأرض ـ يقصد مجرى دقيقا مستويا كمجرى النمل الدقيق المستوى ، أو آثارا دقيقة كآثار مشى النمل تحمل متاعها لتدخره فيما علا من الأرض كناية عن إحكام صنعه وجودة جوهره ، ثم هو ذو بريق ولمعان أبيض لهق كالملح الجبلى الصافى البياض إذا انتضيته أى أخرجته من غمده وسلطته على أى شئ قطعه وفراه .

(١) العير : هنا هو الموضع الناتئ فى وسط السيف . الغرب : الحد يعنى حد السيف الذى يضرب به . المفتأد : موضع النار . تأكلت : أكل بعضها بعضاً ، والجذى جمع جذوة وهى الجمرة العظيمة .

(٢) والمنون هنا المنية . وتقفو أى تتبع ، والسبل : الطرق واحدها سبيل يريد أن هذا السيف دليل المنية فهو يريها طرق الموت ، وهذا من رقيق الشعر .

[المعنى] كأن بين الموضع البارز فى وسطه وحده موضع نار تتقد جذوتها تأكل ما وصل إليها من وقود ، حتى إذا لم تجد ما تتقد فيه أكل بعضها بعضا على حد قول الشاعر :

والنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وهو بهذه المثابة دليل المنية يقودها إلى أعناق أو أكباد من تريد القضاء عليه إذا ما خفى عليها السبيل كناية عن أنه لا يفلت منه من أصابه .

إِذَا هَوَى فِي جُثَّـــةٍ غَادَرَهَا ... مِنْ بَعْدِمَا كَانَتْ خَسَاوَهِيَ زَكَا[1]

وَمُشْرِفُ الْأَقْطَارِ خَاطٍ نَحْضُهُ ... حَابِي الْقَصِيرِ جُرْشُعٌ عَرْدُ النَّسَى[2]

---

(١) هوى فى جثة : أى وقع على جثة ففى هنا بمعنى على . الجثة : الجسد وجمعها جثث وغادرها تركها ، ومنه قول الله عز وجل : (لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) . الخسا : الفرد . الزكا : الزوج ، وإنما يعنى به أنه اذا وقع هذا السيف على جسد جعله قطعتين بعد أن كان واحداً .

(٢) مشرف الأقطار : يعنى فرساً . المشرف : المرتفع العالى . الأقطار : النواحى واحدها قطر ، قال الله جل ذكره : (إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض) الخاطى : الغليظ . النحض : اللحم . الحابى : بالباء المرتفع . القصير : ضلع فى الجنب ، وهى الضلع السفلى . الجرشع : الغليظ الأضلاع وهو الشديد من الخيل القصير الأضلاع المتصلة الى الصلب . وقيل الجرشع الضخم الصدر ، وهو محمود فى الخيل . العرد : الشديد من كل شىء . النسى : عرق مستبطن الفخذ يمر بالساق والعرقوب حتى ينتهى إلى الرسغ ، وهو مقصور يكتب بالياء لأنه يقال فى تثنيته نسيان .

[المعنى] أن سيفى بلغ من صفاء جوهره وحدة حده أنه إذا ما سلط على الجسم أيا كان نوعه لم يتركه إلا مبانا قطعتين بعد أن كان جسدا واحدا - وأما فرسى فصفته أنه مشرف الأقطار أعنى مرتفع الجوانب قوى العضدين متين القوائم ، غليظ اللحم والأضلاع ، واسع الصدر ضخمه ، مفتول الذراعين قوى النسى وهو العرق الرابط الفخذ بالقوائم ، يكنى بذلك عن تكامل قوته الجسمية ، وتماسك مفاصله القوية ، حسبما يتطلبه الفارس النادر ، والصنديد المغامر .

قَرِيبُ مَا بَيْنَ الْقَطَاةِ وَالْمَطَا بَعِيدُ مَا بَيْنَ الْقَذَالِ وَالصَّلَا[1]

سَامِي التَّلِيلِ فِي دَسِيعٍ مُفْعَمِ رَحْبُ اللِّبَانِ فِي أَمِينَاتِ الْعُجَى[2]

---

(١) القطاة : مكان الردف ، وقيل بعد الردف . المطا : هو الظهر كله سمى بذلك لأنه يمطى أى يركب . القذال : من رأس الفرس معقد عذاره أى حيث ينعقد عذاره وهو ما بين الأذنين . العذار : اللجام وجمعه عذر . الصلا : العجز وهو آخر الوركين .

(٢) السامى : العالى المرتفع . التليل : هو العنق . الدسيع : مغرز العنق فى الظهر . الدسيعة بالتاء فى غير هذا الموضوع : مائدة الرجل الكريم ، ومنه قولهم فلان ضخم الدسيعة ، أى كثير طعام المائدة . المفعم : الممتلئ ، يقال أفعمت الإناء إذا ملأته . الرحب : الواسع ، ومنه سميت الرحبة لاتساعها . اللبان : الصدر . الأمينات : القويات الصحاح سالمات الصلاب واحدتها أمينة . العجى : جمع عجاية ، وهى عصب مركب فيها فصوص كأمثال فصوص الخاتم تكون عند رسغ الدابة وهى من عظام كأمثال الكعاب إذا جاع أحدهم دفنها بين نهرين فأكلها .

[المعنى] أن ردفه ليس غليظا بحيث يباعد بين ظهره وبين ما يلى ردفه وذلك كناية عن خفة عدوه لعدم ما يثقله فى أسفله . وتقول وصاف الدواب : إن الثور القوى ما كان رقيق الردف مسحوبه إلى أسفل ويعرف عند العامة بالأسلت ، والعرب تسمى المرأة التى هى كذلك زلاء قال الشاعر :

والتغلبيون بئس الفحل فحلهم فحلا وأمهم زلاء منطيق

يريد لا عجيزة لها نحيفة هزيلة تنمنطق بما يوهم أن لها ردفا وليست بذاك ، وكبر العجيزة إذا اتصلت بخصر نحيل من محاسن النساء ومناقص ذكور بنى الإنسان والبهائم — ثم هذا الفرس مع رقة ردفه وقصره طويل

رُكِّبْنَ فِي حَوَاشِبٍ مُكْتَنَّةٍ إِلَى نُسُورٍ مِثْلَ مَلْفُوظِ النَّوَى[1]

يَرْضَخُ بِالْبِيدِ الْحَصَى فَإِنْ رَقَى إِلَى الرُّبَى أَوْرَى بِهَا نَارَ الْحُبَا[2]

الظهر، وكنى عن هذا ببعد معقد اللجام وهو الرأس عن العجز وهو الردف. والفرس إذا طال ظهره اتسع خطوه، وتتابع عدوه، وقل إذا كر أو فر أن يدرك راكبه. ثم هو سامى التليل أى عالى العنق الموصول بأعلى الصدر الرحب فى لحم مكتنز. ركب هذا الصدر الواسع على عصب سليم قوى ارتبط برسغ هذا الجواد القوى سلالة الصافنات الجياد.

(١) قوله: ركبن: يعنى العجى ويجوز أن يكون القوائم. الحواشب: جمع حوشب وهو عظم فى باطن الحافر، وقيل هو عظم بين الرسغ والحافر مكتنة: أى مستورة من كننت الشيء إذا سترته، وقيل مكتنة مكتنزة ويروى مكينة أى غليظة. النسور: جمع نسر، وهى لحمة ناتئة يابسة فى باطن الحافر شبهها بالنواة لصلابتها. وملفوظ النوى: مالفظ منه أى رمى به وطرح، يقال لفظت الشيء إذا رميت به، ولفظه البحر يلفظه إذا طرحه ورمى به إلى الساحل. والنوى: جمع نواة وهى ما فى داخل التمرة من العظم الذى فيها.

(٢) يرضخ: يكسر والرضخ: الكسر. البيد جمع بيداء: وهى القفر. رقى: ارتفع. الربى: جمع ربوة، وهى الكدى. أورى: أوقد بها، والمستقبل يورى قال الله عز وجل: (أفرأيتم النار التى تورون) أى توقدون وقال (فالموريات قدحاً) أى فالموقدات قدحاً. الحبا: دابة تضىء بالليل كأشد ما يكون من النار، واسمها الحباحب فرخم لضرورة الشعر، قال النابغة:

تقد السلوقى المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحباحب

يُدِيرُ إِعْلِيطَيْنِ فِي مَلْمُومَةٍ إِلَى لَمُوحَيْنِ بِأَلْحَاظِ اللَّأَى(١)
مُدَاخَلُ الْخَلْقِ رَحِيبٌ شَجْرُهُ مُخَلْوَلِقُ الصَّهْوَةِ مَمْسُودٌ وَأَى(٢)

[المعنى] أن قوائم الفرس أو العجى فى أسفلها بنيت وقامت على عظام صلبة قوية فى باطن كل حافر ، ومتى قوى الأساس ثبت المبنى عليه ، وقد كسيت هذه العظام من الأسفل بلحم يبس وصلب حتى كأنه النوى الملفوظ من التمر بعد أخذ ما أحاط به ، ثم قال وقد بلغ من قوته العصبية ، وثقل تراكيبه الجسمية . أنه حينما يعدو فى البيداء يتكسر الحصى تحت حوافره من شدة وقعها عليه، فاذا حول إلى ارتقاء الربى والأمكنة الصخرية العالية أورى بوقع حوافره على الصخر الصلد نارا تشبه نار الحباحب - بالغ فى صلابة حوافره حتى جعلها كالحديد إذا ضرب به الصخر اليابس قدح وتطاير منه الشرر .

(١) الإعليط : وعاء ثمر المرخ شبه أذنى الفرس بذلك ، وهو شبيه بقشور الباقلى الرطب تشبه به آذان الخيل . الملمومة : الهامة المجتمعة المستوية . اللموحين : العينان . الألحاظ : النظرات ، وهى جمع لحظة . اللأى : الثور الوحشى والأنثى لآة على وزن لعاة .

(٢) مداخل الخلق : مجموع الخلق والرحيب الواسع . الشجر : بالشين المعجمة والجيم والراء مجتمع عظم اللحيين . وقال أبو بكر الزبيدى . الشجر مخرج الفم : المخلولق . الأملس . الصهوة : من الفرس موضع السرج . الممسود : المفتول . الوأى : الصلب الشديد ، وهو أيضا السريع من الخيل .

[المعنى] يدير أذنيه الشبيهتين بغلاف ثمر المرخ فى رأس مجتمعة الأجزاء مستوية الخلق بهما عينان براقتان واسعتان كعينى ذكر البقر الوحشى ، ثم أكد اجتماع أجزاء رأسه بصريح قوله : مداخل الخلق . وربما فهم منه

لاَ صَكَكٌ يَشِينُهُ وَلاَ فَجَا وَلاَ دَخِيسٌ وَاهِنٌ وَلاَ شَطَا[1]

يَجْرِي فَتَكْبُو الرِّيحُ فِي غَايَاتِهِ حَسْرَى تَلُوذُ بِجَرَاثِيمِ السَّحَا[2]

صغر فمه فلا يدل على ضخامة خلقه ، فقال لدفع هـذا : رحيب شجره ، أى واسع فمه ، ناعم ظهره أمارة توفر صحته واعتدال مزاجه وكمال ريه وشبعه ثم هو مفتوله وشديده لايشعر للراكب عليه بثقل مهما زاد وزنه ، فكيف بالشجاع المعتدل فى الجسم مفتول الأعصاب !

(١) الصكك : احتكاك العرقوبين أحدهما بالآخر ، وقيل هو اصتكاك الركبتين . يشينه : يعيبه ،الفجا : تباعد ما بين العرقوبين كثيراً ، وهو الفجج أيضا ، والفجا أيضاً : تشقق العصب وانتشاره لفساده وهو عيب . الدخيس : تراكم اللحم على حافر الفرس ، وقيل الدخيس وجع يصيب الفرس فى مشاش حافره . الواهن: الضعيف يقال وهن الشىء إذا ضعف ، ومنه قول الله عز وجل : (فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا) وقال (وهن العظم منى) أى ضعف . الشطا : عظم لاصق بالذراع ، وقيل الشطا انشقاق العصب .

(٢) قوله فتكبو : أى فتعثر لوجهها لسبق الفرس إياها ، وإنما هو مثل . الغايات : وهى منتهى جريه . حسرى : أى منكشفة ، قال الله عز وجل : (خاسئا وهو حسير) تلوذ : أى تلجأ . الجراثيم : جمع جرثومة وهو التراب الذى يجتمع فى أصول الشجر ، والجراثيم أيضاً : الأصول واحدها جرثومة . السحا : ضرب من الشجر .

[المعنى] أن هذا الجواد لا يعيبه ما يعيب كثيرا من الخيل ، ثم فصل ذلك تفصيل خبير بصفات كرائم الجياد وخسيسها ، فقال : ليس به إذا تتابع جريه صكك ناشىء من ضعف الأعصاب يجعل أحد العرقوبين يصطك

لَوِ اعْتَسَفْتَ الْأَرْضَ فَوْقَ مَتْنِهِ يَجُوبُهَا مَا خِفْتَ أَنْ يَشْكُوَ الْوَجَى (١)
تَظُنُّهُ وَهُوَ يُرَى مُحْتَجِباً مِنَ الْعُيُونِ إِنْ دَأَى أَوْ إِنْ رَدَى (٢)

بالآخر فيوّله ، أو يدميه ويتعب راكبه باضطرابه حينئذ ، وليس به عيب الفجا ، وهو تباعد العرقوبين عن بعضهما كثيرا لاعوجاج عراه فى صغره يشبه تكسيح الطفل ، وليس به ضعف الحوافر لوجع أصابها فى مشاشها ، ولا عيب الشطا وهو تشقق العصب الدال على وهن الجواد ، بل هو كفرس النهر المسمى بالكراع تتصل أجزاؤه ، ويتزن قوامه وقوائمه دون اختلال ، أو مرض يضعفه ، حتى إذا جرى تأخر عنه الريح العاصف دون أن يدرك غاية شوطه ، متحسرا لائذا بما ترا كم حول الشجر من تراب ، فيثيره ويسفيه ، ليعمل له حركة غير عادية ، أمارة المسبوق المخذول .

(١) قوله : لو اعتسفت الأرض : أى قطعتها باعتساف منك ، والاعتساف ضد الرفق وهو المشقة . متنه : ظهره . يجوبها : يقطعها ويخرقها ومنه قول الله عز وجل : (وثمود الذين جابوا الصخر بالوادى) . الوجى : أن يبلغ الوجع إلى باطن الرسغ .

(٢) دأى : أى جرى . وكذلك ردى ، والدأى والردى : ضرب من العدو ، يقال دأى يدأى دأيا ، وردى يردى رديا إذا جرى جريا سريعاً .

[المعنى] لو أنك كنت الراكب عليه حين يعدو ، ولم تشفق به ، وكلفته فوق طاقة غيره فى قطع الأرض كإرادة جبار ، لما خفت عليه أن يشكو ضعف ساقيه ، ولا أن يكل له عضد ، على أنه إن استشاط عدوا فدأى أو ردى انقض فى فضاء الوادى كجلمود صخر حطه السيل من عل ، تظنه لشدة دأيه وردية محجبا عن عيون النظارة ، مستورا عن من كانوا يرونه حين ابتدأ المسير كقطاة الوادى تقف على غصن فما هى إلا لمحة وتغيب .

إِذَا اجْتَهَدْتَ نَظَرًا فِي إِثْرِهِ قُلْتَ سَنًا أَوْمَضَ أَوْ بَرْقٌ خَفَا(١)

كَأَنَّمَا الْجَوْزَاءُ فِي أَرْسَاغِهِ وَالنَّجْمُ فِي جَبْهَتِهِ إِذَا بَدَا(٢)

هُمَا عِتَادِي الْكَافِيَانِ فَقْدَ مَنْ أَعْدَدْتُهُ فَلَيْنَأَ عَنِّي مَنْ نَأَى(٣)

---

(١) السنا : مقصوراً الضوء قال الله جل ذكره : (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) . أومض : أضاء أى لمع لمعاناً خفيفا يقال فى تصريفه : يومض إيماضاً ، فالواو فيه أصلية . الخفو : لمع البرق فى نواحى الغيم يقال : خفا البرق يخفو خفواً .

(٢) الجوزاء : نجم معروف وهو التوأمان . الأرساغ : جمع رسغ وهو مفصل ما بين الحافر والوظيف من كل دابة . النجم هو الثريا ، يصف غرة الفرس وتحجيله . بدا : ظهر وهو غير مهموز .

[المعنى] إذا أتبعته نظرك وهو يطير كقطاة الصحراء ، أو غزال شرده صياده ما خلته إلا ضوءا لمع ثم ذهب ، أو برقا لمع فى جوانب غيم ثم غاب . ثم وصف غرته فى بياض ناصيته وتحجيله فى بياض مقدم قوائمه من الأسفل مما يلى الحوافر بقوله : كأنك ترى الثريا لامعة مضيئة فى أرساغه ، والنجم الزاهر ، ذا السنا الباهر ، فى جبهته إذا بدا لك ، وأقبل بوجهه عليك ، وهذه الغرة وهذا التحجيل فى الأربعة قوائم ، أو فى اثنين منها على التعاكس مما يتفاءل به مقتنو الخيل فى جلب الخير به ، والسعادة بركوبه ، وربما شهد له حديث : « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

(٣) العتاد : ما يتخذ عدة للدهر ، ويكون بحضرة من يتخذ يقال عتد الشئ يعتد فهو عتيد إذا حضر قال الله جل ذكره : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) فلينأ : أى فليبعد من نأى إذا بعد .

فَإِنْ سَمِعْتَ بِرَحَى مَنْصُوبَةٍ لِلْحَرْبِ فَاعْلَمْ أَنَّنِي قُطْبُ الرَّحَى (١)

وَإِنْ رَأَيْتَ نَارَ حَرْبٍ تَلْتَظِي فَاعْلَمْ بِأَنِّي مُسْعِرٌ ذَاكَ اللَّظَى (٢)

خَيْرُ النُّفُوسِ السَّائِلَاتُ جَهْرَةً عَلَى ظُبَاتِ الْمُرْهَفَاتِ وَالْقَنَا (٣)

---

(١) قوله برحى منصوبة : يريد برحى الحرب ، وهو موضع استدارة أهلها إذا تعاركوا ، وقد يراد بالرحى التى يطحن عليها . القطب : الحديدة أو الخشبة التى تدور عليها وأنشد :

فدرتا كما دارت على قطبها الرحى ودارت على هام الرجال الصفائح

[المعنى] سيفى المذكور فيما مضى ، وفرسى الموصوف هنا هما عدتى فى صولتى ، وعتادى أى أداتى فى نيل بغيتى ، اللذان عوضانى فقد من كنت أعددته لزمنى ، وادخرته لعاديات دهرى ، وما داما معى وتحت نفوذى فليبعد عنى من اراد البعد ، فلست مباليا بنأيه ، ولامهتما بتجافيه ، فانى بهما قوى غنى غير محتاج لناصر أومعين. فاذا سمعت بحرب تدور رحاها فاعرف أننى عميدها ، ومحور دورانها .

(٢) تلتظى : تشتعل . مسعر : أى موقد . اللظى : اللهب .

(٣) جهرة : عيانا . الظبات : جمع ظبية وهى حد السيف . المرهفات : السيوف الرقاق واحدها مرهف . القنا : الرماح واحدها قناة .

[المعنى] إن سمعت أن نار الحرب تطاير شررها ، وحمى وطيسها ، وسمت ألسنة لهبها الزرقاء فاعلم أننى المشعل لها ، المزكى للظاها ، وإن خير القبائل السامية فى المجد ، العالية الهمة ، القوية العزيمة من سالت دماؤها الغالية على ظبات السيوف وسنان الرماح ، إبان الكفاح ، دون الرضا بخنوع مذل ، أو عيش مقل . والظبات بضم الظاء جمع ظبية كظبي. قال فى المنجد : الظبة : حد السيف أو السنان ونحوهما جمع ظبات وظبي وظبون وظبون وأظب .

إِنَّ الْعِرَاقَ لَمْ أُفَارِقْ أَهْلَهُ عَنْ شَنَآنٍ صَدَّنِي وَلاَ قِلَى (١)

وَلاَ أُطَّبِي عَيْنِيَ مُذْ فَارَقْتُهُمْ شَيْءٌ يَرُوقُ الْعَيْنَ مِنْ هٰذَا الْوَرَى (٢)

هُمُ الشَّنَاخِيبُ الْمُنِيفَاتُ الذُّرَى وَالنَّاسُ أَدْحَالٌ سِوَاهُمْ وَهُوَى (٣)

والبيت الثاني بمعنى قول السموءل بن عادياء .

ومامات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل

يريد : ما مات منا شريف عالى النسب سامى الحسب على فراشه بل فى ميدان القتال ، وساحة النزال .

(١) العراق : بلد وأصله فى كلام العرب شاطئ البحر ، وسميت العراق عراقا لأنها شاطئ دجلة والفرات . لم أفارق : لم أزايل . أهله : سكانه . عن شنآن : أى بغض يقال شنآ وشنآن وشنأ . صدنى : منعنى وصرفنى ويروى عن شنأ أصدنى يقال صده وأصده بمعنى واحد قال الشاعر :

أصد الشاص ذى القرنين حتى تولى عارض الملك الهمام

القلى : البغض .

(٢) ولا أطبى : أى ولا دعا ولا استمال . يروق : يعجب . الورى : الخلق

[المعنى] لم أرتحل من العراق العربى إلى أية ناحية أخرى لبغض بينى وبين أهله يصرفنى عن المقام بينهم ، وإنما هم خاصة أحبائى ، وخلاصة أصدقائى ، وأس هنائى ، وملء عينى بحيث لم يرق عندها منظر أحد سواهم ، ولا أعجبها خلال من عداهم .

(٣) الشناخيب : أطراف الجبال واحدها شنخوب . المنيفات : المرتفعات الطوال وهى الشواهق ، والشواهق جمع شاهق وما شهق من الجبال أى طال . الذرى : جمع ذروة وهى أعالى الجبال . الأدحال : جمع دحل وهى الحفير الغامض من الأرض يتسع أسفله و يضيق أعلاه ، وإنما مدحهم بالرفعة على سائر الناس وأن الناس كلهم تحتهم .

هُمُ الْبُحُورُ زَاخِرٌ آذِيُّهَا وَالنَّاسُ ضَحْضَاحٌ ثِعَابٌ وَأَضَى[1]
إِنْ كُنْتُ أَبْصَرْتُ لَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ مِثْلاً فَأَغْضَيْتُ عَلَى وَخْزِ السَّفَا[2]

---

(١) الزاخرات : جمع زاخر والزاخر : الماء الكثير الفائض يقال زخر البحر إذا كثر ماؤه وارتفعت أمواجه . الآذى : الموج جمعه أواذى . الضحضاح : الماء القليل لا عمق له يكون إلى الكعبين وأنصاف الساقين . الثعاب : جمع ثعب وهو الموضع المطمئن فى أعلى الجبل ليستنقع فيه ماء المطر . الأضى : جمع أضاة وهى الغدران الصغار ، يعنى أنهم البحور والناس ضحضاح أى ماء قليل .

[المعنى] أن خاصة أهل العراق العربى المستوجبين ثنائى إذا قورنوا بأهل الدنيا وما درج من بنى الانسان على وجه البسيطة كانوا فى سمو المكانة وعلو الشرف كذرى الجبال الشامخات وغيرهم فى النزول كالهوى والحفائر ، والهوى : بضم الهاء وفتح الواو جمع هوة بضم الهاء وفتح الواو وتشديدها ترادف الحفرة السحيقة فى الأرض ، كما ترادف الدحل ، والعاثور ومنه قول الشاعر :

بل بلدة مرهوبة العاثور تنازع الرياح سحق المور

أى لا تسمح للريح بالعبث بغبارها لعمق عاثورها . ثم قال وهم فى سعة الصدور والسماحة بلاحد محدود ولاسبب موجب كالبحور الزاخرة المملوءة باللؤلؤ والمرجان واللحم الطرى ، لا ترد يد صائد ، ولا تنتظر شكر نائل ، وغيرهم كالمحل والضحضاح والأضى . يدرك الناظر غوره . ولا يتلمس بره وخيره . فهم كثر ، وغيرهم قل .

(٢) أغضيت : صبرت على المكروه ، والإغضاء الصبر على المكروه . الوخز : طعن غير نافذ ، وقيل الوخز الطعن بسرعة . وقيل الوخز : الشوك . السفا : شوك البهمى .

حَاشَا الْأَمِيرَيْنِ اللَّذَيْنِ أَوْفَدَا عَلَيَّ ظِلاً مِنْ نَعِيمٍ قَدْ ضَفَا(١)

هُمَا اللَّذَانِ أَثْبَتَا لِي أَمَـــلاً قَدْ وَقَفَ الْيَأْسُ بِهِ عَلَى شَفَا(٢)

تَلَافَيَا الْعَيْشَ الَّذِي رَنَّقَهُ صَرْفُ الزَّمَانِ فَاسْتَسَاغَ وَصَفَا(٣)

---

(١) قوله أوفدا أى أرسلا يقال : أوفد فلان فلانا إذا أرسله . ضفا : أى كثر من قولهم ضفا ذيل الفرس إذا كثر وطال ، ونعم ضافية : أى كثيرة .

[المعنى] إن كنت أبصرت لأهل العراق العربى موضع ثنائى ندا ومثيلا فصبرت على فراقهم على أحر من جمر الغضى ووخز السفا . وتأنيب الضمير ، فانى لم أر فى الدنيا على اتساعها وكثرة من فيها إلا الأميرين اللذين أسبلا على من ظل نعيمها ما جعلنى فى بحبوبة الحياة سعيدا ، ممتعا برغد العيش وهناءة البلبال .

(٢) قوله أثبتا لى أملا : أى أبقيا لى وأصلا . وأملا أى مراداً ورجاء . اليأس : انقطاع الرجاء . شفا الشىء : طرفه وحرفه قال الله جل ذكره : (على شفا جرف هار) .

(٣) تلافيا : تداركا ، وقيل تلافيا أتياه على قصد . رنقه : كدره ، والرنق الماء الكدر . صرف الزمان : تقلبه من حال إلى حال . استساغ : سلس فى الحلق وطاب تقول : هذا شراب سائغ أى سهل طيب .

[المعنى] إن الأميرين بما أسبغاه على من نعم ، وخلعاه على من حلل السعادة والشرف ، حققا لى أملا فى الحياة ، ورجاء فى المتعة بها بعد أن بلغ اليأس عندى منهما مبلغه ، وهما اللذان أدركا عيشى الذى كدرته صروف الليالى وحدثان الأيام فبدلاه سائغا صافيا لذيذا .

وَأَجْرَيَا مَاءَ الْحَيَا لِي رَغَدًا فَاهْتَزَّ غُصْنِي بَعْدَ مَا كَانَ ذَوَى (١)

هُمَا اللَّذَانِ سَمَوَا بِنَاظِرِي مِنْ بَعْدِ إِغْضَائِي عَلَى لَذْعِ الْقَذَى (٢)

هُمَا اللَّذَانِ عَمَّرَا لِي جَانِبًا مِنَ الرَّجَاءِ كَانَ قِدْمًا قَدْ عَفَا (٣)

---

(١) الحيا : مقصور الغيث والخصب ، وإنما سمى حيا لأن الله يحيي به الأرض. الرغد : السعة فى العيش قال الله عز وجل : (وكلا منها رغداً حيث شئتما) فاهتز غصنى : أى طال يقال اهتز النبات إذا طال واهتزت الأرض إذا أنبتت ، وأصل الهز : التحريك فكأنه يريد تحرك ليمتد ويطول . الغصن : ما تشعب من ساق الشجر وتفرع ، والجمع غصون وأغصان . ذوى : ذبل .

(٢) سموا : أى رفعا وقوله . بناظرى : يعنى أرادا رفع ناظرى فزاد الباء للوزن وقوله : من بعد إغضائى : أى من بعد ماقاربت جفونى لأطبقها على لذع القذى : واللذع الحرقة . يقال لذعته النار تلذعه إذا أحرقته ، والقذى ما يقع فى العين ، يقال قذت عينه تقذى قذيا إذا ألقت القذى .

[المعنى] أنهما بغزير إنعامهما علىّ جعلا الماء يجرى فى أرض حياتى عذبا غزيرا حتى أخصبت تربتها فاخضر فيها قوام جسمى ، وترعرع ونما بعد الذبول ، وهما اللذان رفعا رأسى صعدا إلى السماء شعورا بالنعمة وإدراكا لسمو الشرف وعلو المكانة، من بعد أن كنت مطأطئ الرأس مغمض الأجفان على لذع قذى العينين، والمقصود المعنى الكنائى أى بعد أن كابدت أثر الذلة وألم الفقر عيانا .

(٣) قوله : عمرا : أى أصلحا ، يقال عمر فلان منزله إذا أصلحه وسكنه ويروى بالغين المعجمة أى غطيا من قولهم غمره الماء أى غطاه ، ومعناه سترا ما تكشف من جوانبى . الجانب : الناحية ، وجمعه جوانب . الرجاء : ممدود الأمل . قدما : أى قديماً . عفا : أى درس .

وَقَلَّدَانِي مِنَّـــةً لَوْ قُرِنَتْ بِشُكْرِي أَهْلِ الْأَرْضِ عَنِّي مَاوَفَى (١)
بِالْعُشْرِ مِنْ مِعْشَارِهَا وَكَانَ كَالْـــحَسْوَةِ فِي آذِيِّ بَحْرٍ قَدْ طَمَى (٢)
إِنَّ ابْنَ مِيكَالَ الْأَمِيرَ انْتَاشَنِي مِنْ بَعْدِمَاقَدْ كُنْتُ كَالشَّيْءِ اللَّقَى (٣)

---

(١) وقلدانى منة أى جعلاها فى عنق : وهو موضع القلادة ، ومنة : أى نعمة وجمعها منن . قرنت : أى عدلت وقيست . قوله ما وفى : أى ما قام بها ولا عد لها شكرهم .

[المعنى] أنهما بعد أن حققا لى أملا فى الحياة عمرا لى جانبا كبيرا بحسن الرجاء وقد كان اندرس وتخرب . وقلدانى فى عنق والمراد خلدا فى سويداء قلبى ذكر أن منتهما على ، وعظيم إحسانهما إلى ، بحيث لو وزنت هـذه المنة بشكر أهل الدنيا مجسما ماوفى بقدرها فضلا عن شكرى المفرد

(٢) الحسوة : الجرعة مما يشرب . الآذىّ : الموج . طمى : امتلأ وارتفع .

(٣) ابن ميكال : هو عبد الله بن محمد بن ميكال اسم أعجمى لاينصرف فى المعرفة وينصرف فى النكرة ، وهو فارسى من أمراء فارس ، ومعنى انتاشنى : نعشنى وقيل معناه تناولنى وأخذنى مقربا إليـه والعرب تقول الظبية تنوش الأراك وتتناشه أى تتناوله بفمها قال الله تبارك وتعالى : (وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) أى وكيف لهم التناوش من مكان بعد ، ونشت الرجل نوشاً أنلته خيراً . الأراك : شجر يستاك بعوده قال الشاعر :

اذا هى لم تستك بعود أراكة تنخل واستاكت به عود أسحل

والأسحل أيضاً شجر يستاك بعوده . اللقى : الشىء المطروح الملقى يقال رجل لقى ، وقوم ألقاء ، وكل ما يلقى ويطرح فهو لقى .

[المعنى] أن منتهما لو ووزيت بشكران أهل الأرض بالنيابة عنى ماعدل عشر عشرها أى جزءا من عشرة أجزاء مقسم إليها عشر هذه المنة ، بل كان

وَمَدَّ ضَبْعَىَّ أَبُو الْعَبَّاسِ مِنْ ... بَعْدِ انْقِبَاضِ الذَّرْعِ وَالْبَاعِ الْوَزَى (١)

ذَاكَ الَّذِى مَا زَالَ يَسْمُو لِلْعُلاَ ... بِفِعْلِهِ حَتَّى عَــلاَ فَوْقَ الْعُلاَ (٢)

لَوْ كَانَ يَرْقَى أَحَدٌ بِجُودِهِ ... وَمَجْدِهِ إِلَى السَّمَاءِ لَارْتَقَى (٣)

شكر جميع الخليقة بالنسبة لها كالجرعة من موج بحر زاخر امتلأ بالماء وارتفع ، ثم قال : إن ابن ميكال وهو أحد الأميرين الممدوحين له وأبدل منه الأمير إعلانا بلقبه المشرف انتاشنى أى انتشلنى والتقطنى من الحضيض إلى العلا ، من بعد ما كنت كالشىء اللقى المطروح لا يعتنى بشأنه .

(١) ضبعى : عضدى ، والضبع وسط العضد . أبو العباس : هو إسماعيل ابن عبد الله بن ميكال ، فمدح الأب والابن . الذرع : والذراع واحد . الباع : القامة ومنه الحديث الذى جاء عن زمان الطوفان فإن الماء سار على وجه الأرض سبعين باعا ، وعلى رؤوس الجبال سبعين ذراعاً . الوزى : القصير يقال رجل وزى وامرأة وزاة .

(٢) يسمو : يرتفع .

[المعنى] وقد بسط عضدىّ ، وقوى ساعدىّ ، وشد إزرى ولد الأمير المكنى بأبى العباس بعد أن التويا انكماشا ، وقصر انزواء وتأثرا من عاديات الزمان ونوائب الحدثان ، وما كانا وازيين طبيعة . ذلك الفاضل الممدوح إسماعيل بن عبد الله بن ميكال الأمير ما زال يسمو للعلا بكمال فعله حتى سما وارتفع فوق مكانة العلا والمجد ، وفى هذا من الغلو المقبول و بدع الخيال ما فيه .

(٣) يرقى : يطلع ويرتفع . الجود : الكرم . المجد : الشرف . لارتقى : لارتفع . الندى : الكرم .

مَا إنْ أَتَى بَحْرَ نَدَاهُ مُعْتَفٍ ... عَلَى أُوَارَى عَلَمٍ إلاَّ ارْتَوَى[1]

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِأَمِيرَيَّ وَمَنْ ... تَحْتَ السَّمَاءِ لِأَمِيرَيَّ الْفِدَا[2]

لاَ زَالَ شُكْرِى لَهُمَا مُوَاصِلاً ... لَفْظِيَ أَوْ يَعْتَاقَنِي صَرْفُ الْمُنَى[3]

---

(١) المعتفى: الطالب للرفد وقوله: أوارى: أى حرارة. والأوار حرارة الشمس والنار فأوار للتذكير وأوارى للتأنيث. العلم: الجبل الصغير وجمعه أعلام. ارتوى: ثمل وشبع هكذا فى الأصل والرواية الصحيحة يشكو أوارى عيم الخ والعيم العطش.

(٢) الفداء: مكسور الأول ممدود، فاذا فتح أوله قصر، ومعنى الفداء الوقاية تقول. فديتك بنفسى: أى جعلتها فداءك أى وقاية لك وعوضاً منك.

[المعنى] لو كان الرقى إلى السماء ينال لبنى الإنسان بالكرم والشرف وعلو الهمة لارتقى إليها إسماعيل الممدوح، فقد بلغ فى الكرم منتهاه، وفى المجد والشرف مداه، حتى أن من ورد منهل عطائه. وبحر نواله، طالبا الرفد والكرم يؤوب ثملا منتشيا بكثرة ما نال، كالمرتوى المثلج الصدر بما أطفأ حر جواه، وأزال عصب صداه، بعد أن علا جبلا صغيرا فأعطشته الهاجرة بحرها، ولفحته الشمس الملتهبة بوهجها وسمومها، ومعنى معتف على أوارى علم: طالب الرى والغوث والنجدة والتغلب على حر شمس لافحة فاجأته فعصبت حلقه ولسانه على علم صغير لا يطاق حره والمعنى على هذا أبلغ مما كتب فى تصحيح رواية البيت لما فى هذا من المبالغة والشعور بالنعمة ما ليس فى معنى التصحيح المذكور والله أعلم.

(٣) أو يعتاقنى: أى يصرفنى وإذا أردت أمراً فصرفك عنه صارف قلت عاقنى عن الأمر الذى أردت عائق، ونصب أو يعتاقنى لأن المراد حتى يعتاقنى فانتصب بحتى. الصرف: التقلب. المنى: بفتح الميم مقصور المقدر يقول منى الله لك مايسرك أى قدر الله لك مايسرك، قال الشاعر:

إن الألى فارقتُ من غير قِلًى ... ما زاغ قلبي عنهمُ وما هفا[1]

لكنَّ لي عزمًا إذا امتطيتُهُ ... لِمُبهَمِ الخطبِ فآهُ فانفأى[2]

ولو أشاء ضمَّ قُطريهِ الصبا ... عليَّ في ظلِّ نعيمٍ وغِنى[3]

ولا تقول لشيء سوف أفعله ... حتى تبين ما يمنى لك المانى

أى حتى تعرف مايقدر لك المقدر .

(١) زعم قوم من النحويين أن الألى جمع لاواحد له من لفظه ، وزعم قوم أنه اسم للجمع بمنزلة قولهم نفر ورهط . من غير قلى : من غير بغض . مازاغ : ما مال . ولا هفا : أى ولازل ، ويروى ولا هوى أى ولاسقط ، والهفوة : الزلة يقال كانت من فلان هفوة أى زلة وسقطة .

[المعنى] ما دمت حيا فلسانى يلهج بالثناء عليهما عطرا ، والشكر لهما مستمرا، حتى اللفظ الأخير من حياتى . فلايمسك لسانى عن مواصلة شكرهما إلا نزول القضاء المبرم ، والموت المحتم ، إن هؤلاء الرهط موضع إجلالى ، ومحل اعتبارى الذين ما نأيت عنهم إلا على الوداد من غير بغض وقلى ، لم يمل قلبى إلى سواهم ، ولا هفا فى زلة لا تغفر إذا هو ينساهم ، بل ما زال ولن يزال يهواهم ، حافظا لهم الصنع الجميل ، والخير الجزيل .

(٢) العزم : العقد على فعل الأمر وربط النية على إمضائه . امتطيته : ركبته وجعلته مطية . المبهم : من الأمور المغلق : فآه : شقه . فانفأى : أى فانشق . والفأى : الشق فى الجبل .

(٣) ضم قطريه : أى جمع ناحيتيه ، ويروى مد قطريه ، ومعناه نشر . وقطراه : جانباه . القطر : الجانب وجمعه أقطار . الصبا : الفتوة واللهو . الظل : النعيم ما امتد عليه منه . النعيم : ضد البؤس ، وهو طيب العيش وسعته . الغنى : ضد الفقر ، وهو وجود المال والاستغناء به

وَلاَعَبَتْنِي غَادَةٌ وَهْنَانَةٌ تُضْنِي وَفِي تِرْشَافِهَا بُرْءُ الضَّنَى (١)
تَفْرِي بِسَيْفِ لَحْظِهَا إِنْ نَظَرَتْ نَظْرَةَ غَضْبَى مِنْكَ أَثْنَاءَ الْحَشَا (٢)

[المعنى] إنى إذا ركبت متن جواد عزمى لم يصدنى عن مضاء ما عزمت عليه صاد مهما صعب المراد وعز المنال ، ولو أشاء فتق الأمر المبهم على الكثير ، المتعاصى على الجم الغفير ، لضمت فتوتى جانبيه فى عزة نادرة ، وسعادة متوافرة .

(١) قوله : ولاعبتنى : هو من اللعب ، ومعناه مازحتنى . الغادة : الفتاة الناعمة والرجل أغيد . والأغيد الوسنان المائل العنق ، ويقال تغايد فلان فى مشيه إذا مال . الوهنانة : الثقيلة القيام والقعود ، وقيل الوهنانة الطيبة الحديث تضنى : أى تسقم ، والضنى الهزال من المرض . الترشاف : قيل الشفتين ، وهو فوق المص ، وهو مص الماء أيضاً . برء الضنى : ذهاب السقم أى هى تضنى ، وفى تقبيلها البرء من السقم .

(٢) تفرى : تقطع . اللحظ : النظر . غضبى : مغتاظة . وأثناء الحشا : ما انثنى منها أى ما انعطف : الحشا : الكبد وما اتصل بها .

[المعنى] وحين أقوم باقتحام الأمر الصعب فأذلله فى عزة نادرة المثال تلاطفنى وتداعبنى غادة حسناء ، وميساً هيفاء ، تضنى وتسقم من تقرب منها فنأت عنه ودلت عليه ، وفى تقبيل شفتيها الرقيقتين الحمراوين ولو مرة برء ضناه وشفاء سقامه ، وإنما اختارها وهنانة وهى الثقيلة القيام والقعود لثقل ردفها مع نحول خصرها حتى إذا أسل خدها ، واعتدل قدها ، مع هذا فهى فاتنة وإلى ما أشار إليه يصرح قول القائل متغزلا فى فاتنته :

لها ردف تعلق فى ضعيف وهذا الردف لى ولها ظلوم
يحيرنى إذا فكرت فيه ويتبعها إذا رامت تقوم .

فِي خَدِّهَا رَوْضٌ مِنَ الْوَرْدِ عَلَى النَّسْـــرِينِ بِالْأَلْحَاظِ مِنْهَا يُجْتَنَى (١)

لَوْ نَاجَتِ الْأَعْصَمَ لَانْحَطَّ لَهَا طَوْعَ الْقِيَادِ مِنْ شَمَارِيخِ الذُّرَى (٢)

ثم قال علامة الأزد فى قوة سحرها : تغرى بسيف لحظها الخ يعنى أنها تملك قتل ناظرها المفتون بها بنظرة غضب قلبى لا يظهر لرائيها العادى فى وجهها عبوس، وإنما يعرفها من الفاتنات من انكوى بجمرهن ، وبات أسير الرضا والغضب أمثال عمر بن أبى ربيعة القائل فى ثريا :

وليت الثريا فى المنـام ضجيعى أفى الجنـة الخضراء أم فى جهنم

وإلى هـذا المعنى الرمزى أشار علامة الأزد بقوله : أثناء الحشا أى بين طياته المقروءة للعاشقين .

(١) النسرين : النور الأبيض الألحاظ : النظرات جمع لحظة . يجتنى يقتطف .

(٢) ناجت : أى تكلمت . الأعصم : هو الوعل الذى فى إحدى يديه بياض ، وربما كان البياض فيهما ، وسمى وعلا للبياض الذى فى أظلافه ، والأظلاف جمع ظلف وهو الخف الذى يكتنف رجل الظبية . لانحط : لنزل . القياد : التذلل . الشماريخ : رؤوس الجبال واحدها شمراخ . الذرى : أعالى : الجبال واحدها ذروة .

[المعنى] تمثل حمرة خدى هذه الغادة الناعمة البيضاء اللامعة روضة ورد بين الأبيض والأحمر القانى تفتحت براعمه ، ودان قطافه ، يجنيه من خديها مختلس النظرات إليها فى ضوء القمر ، أثناء السمر — ثم قال فى قوة تأثير كلامها : لو كلمت الوحش النافر ، والوعل وهو الأعصم الشارد ، لأصاخ إلى ندائها وانحط من أعالى الجبال سلس القياد أسير الحديث خاضعا ذليلا . ولعل علامة الأزد أراد معنى رمزيا حاصله : أنها لفرط جمالها وجمال الظبية هى من جنس الظباء فلو ناجت ذكر الظباء لأنس بصوتها ، ولبى نداءها ، منحطا من شماريخ الجبال كالسيل وجد لمجراه سبيلا .

أَوْ صَابَتِ الْقَانِتَ فِي مُخْلَوْلِقٍ مُسْتَصْعَبِ الْمَسْلَكِ وَعْرِ الْمُرْتَقَى (١)

أَلْهَاهُ عَنْ تَسْبِيحِهِ وَدِينِهِ تَأْنِيسُهَا حَتَّى تَرَاهُ قَدْ صَبَا (٢)

---

(١) قوله : أو صابت القانت : أى وافقته ، يقال صاب السهم وأصاب إذا وقع فى الرمية وصادفها ، وصاب السحاب الموضع وأصابه إذا أمطره القانت : القائم بالعبادة المطيع لله الزاهد فيما يرغب الناس فيه من الدنيا قال الله تعالى عزوجل : (كل له قانتون) أى مطيعون . المخلولق : الجبل الأملس الطويل الذى لا نبات فيه . مستصعب : أى صعب المسلك : الطريق الذى يسلك فيه أى يدخل ويمشى . المرتقى : المصعد وهو المكان الذى يرتقى اليه أى يطلع اليه . الوعر : الصعب .

(٢) ألهاه : شغله : التسبيح : التنزيه لله عز وجل وهو التبرئة من كل ذم ، وقد يكون التسبيح بمعنى الصلاة يقال سبحت أى صليت . دينه : أى طاعته . وتأنيسها : أنسها وحديثها وقوله : حتى تراه قدصبا : أى قد لها وفعل فعل الصبيان ، وصبا يكتب بالألف لأنه من ذوات الواو .

[المعنى] أن سحر حديث هذه الفاتنة لو أصاب الناسك المتعبد فى جبل أجرد أملس لا نبات فيه مبالغة فى الطاعة ، وغلوا فى الزهادة ، لأنساه نسكه وتعبده وانجذب إلى فاتنة الإنسان ، بعد أن نفر من كل حيوان ، ونزل من مرتقاه الصعب مقتفيا أثرها ، أسير هواها ، فتراه بعد انقطاعه عن السوى لا يأنس بسواها . والظاهر أن صبا مخفف صبأ بمعنى مال وتعشق ، لا من صبا يصبو أى فعل فعل الصبيان ، يرشدك إلى هذا المعنى قوله ألهاه عن تسبيحه الخ حيث يناسبه الميل إليها والتعلق بها والله أعلم .

كَأَنَّمَا الصَّهْبَاءُ مَقْطُوبٌ بِهَا مَاءُ جَنَى وَرْدٍ إِذَا اللَّيْلُ عَسَا (١)

يَمْتَاحُهُ رَاشِفُ بَرْدِ رِيقِهَا بَيْنَ بَيَاضِ الظَّلْمِ مِنْهَا وَاللَّمَى (٢)

---

(١) الصهباء : الخمر سميت بذلك لصهوبة لونها . المقطوب : الممزوج وكذلك المشوب بمعنى واحد . ماء جنى ورد : أى ماء جنى من الورد طريا أى قطف ، والجنى اسم ماجنى . عسا الليل : أظلم ويروى غسا بالغين المعجمة ومعناهما واحد.

(٢) يمتاحه : يستقيه وقيل الممتاح الذى يغرف بيديه من أسفل البئر إذا قل الماء ، والماتح بالتاء الذى يمد الحبل فى البئر ليستقى . الراشف : المتناول الشراب بشفتيه . ريقها : لعابها . الظلم : بفتح الظاء بياض الأسنان حتى كأنها من شدة البياض يعلوها سواد . اللمى : سمرة الشفتين يقال رجل ألمى وامرأة لمياء . واللمى أيضاً قلة اللحم والدم على اللمة والشنب ، وبرد ريقها وعذوبته .

[المعنى] كأنها برد ريقها وعذوبته وتأثيره فيمن يمصه من بين شفتيها الخمر مزجت بماء الورد ، يشمل برشفها متعشقها ، ويسكر من لذتها شاربها . ولأن العرب كانت تشبه بالخمر كل مالذ وطاب فى جاهليتها شبه ريق الغانية بها كعادة الشعراء وإن كانت الخمر أم الخبائث مهما مزجت بالورد أو العسل ، كما قال جل شأنه : (والذى خبث لا يخرج إلا نكدا) — ثم بالغ فى انتظام لئى أسنانها البيضاء ، وقلة لحمها واتزان دمها بقوله :

يمتاحه الخ يعنى ينقل من حظى بلثم فيها ريقها العذب المسكر من بين أسنانها اللامعة المشرقة البياض وشفتيها الحمراوين المظهرتين سوادا ناشئا من مخالطة البياض الناصع المشرق لحمرة شفتيها المغريتين على التقبيل ، ويقرب من هذا المعنى قول الغزل :

إذا الوهم أبدى لى لماها وثغرها تذكرت ما بين العذيب وبارق

ويذكرنى من قدها ومدامعى مجرى عوالينا ومجرى السوابق

سَقَى الْعَقِيقَ فَالْحَزِيزَ فَالْمَلَا ... إِلَى النُّحَيْتِ فَالْقُرَيَّاتِ الدُّنَا (١)

فَالْمِرْبَدَ الْأَعْلَى الَّذِى تَلْقَى بِهِ ... مَصَارِعَ الْأُسْدِ بِأَلْحَاظِ الْمَهَا (٢)

مَحَلَّ كُلِّ مُقْرِمٍ سَمَتْ بِهِ ... مَآثِرُ الْآبَاءِ فِى فَرْعِ الْعُلَا (٣)

---

(١) العقيق : موضع بالبصرة ، والعقيق أيضاً موضع حول مكة على أميال منها ، والعقيق قرية بالمدينة . والحزيز والملا والنحيت : مواضع بالبصرة ونواحيها ، القريات : جمع قرية مصغرة . الدنا : مادنا منها .

(٢) المربد : موضع بالبصرة وهو سوق تجتمع فيه العرب ، وكان الأخفش سعيد بن مسعدة يقول : المربد بفتح الميم وكسر الباء مثل المسجد على وزن مفعل ، مصارع الأسد : موضع سقوطها عند الموت ، وأراد بالأسد الرجال فكنى عنهم بالأسد لشجاعتهم . وأراد أنهم صرعوا بألحاظ المها : أى قتلتهم ألحاظ النساء الحسان البيض المشبهة بالمها وهى بقر الوحش الواحدة مهاة . فالألحاظ هى الفاعلة فى المعنى ، وألحاظ نظرات .

[المعنى] أن مصة عذبة صافية من ريقها البرد الذكى المسكر تكفى لرى رياض العقيق فالحزيز فالملا وما يتصل به من رياض النحيت حتى القرى القريبة منها إذا ما حظى أهلها بشئ منه على قلته فهو بلسم الشفاء لهم من كل صدى وجفاف ، كما يروى بها أهل المربد مجتمعين الذين ترى كثيرا من صناديدهم الشجعان الشبيهين بالأسود صرعى بألحاظ ونظرات هذه المهاة الإنسة الفاتنة الفاتكة بسحر العيون .

(٣) المحل : الموضع الذى يحط القوم المقام أى ينزل به القوم للإقامة . المقرم : السيد الكريم ، وأصل المقرم فحل الإبل ، وسمت به : أى ارتفعت به . المآثر : جمع مأثرة وهى المكارم الحسنة والأفعال الرضية . فرع كل شئ : أعلاه ، وفرعت الجبل إذا علوته ، وفروع الشجرة أعالى أغصانها

مِنَ الْأُلَى جَوْهَرُهُمْ إِذَا اعْتَزَوْا ... مِنْ جَوْهَرٍ مِنْهُ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى (١)

صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ مَا جَنَّ الدُّجَى ... وَمَا جَرَتْ فِي فَلَكٍ شَمْسُ الضُّحَى (٢)

جَوْنٌ أَعَارَتْهُ الْجَنُوبُ جَانِبًا ... مِنْهَا وَوَاصَتْ صَوْبَهُ يَدُ الصَّبَا (٣)

وافترعت المرأة إذا افتضضتها وأصله إذا علوتها . والأفرع : طويل الشعر

(١) قوله : من الألى : أى من الذين . جوهرهم : أصلهم ، وجوهر كل شىء خالصه . إذا اعتزوا : أى إذا انتسبوا يقال اعتزيت إلى فلان أى انتسبت اليه . المصطفى : المختار .

[المعنى] أن صرعى لحظاتها من الصناديد من علية القوم ، وأشرف أرومة فى المجد ، تسمو بهم صنائع آبائهم فى إغاثة الملهوف ، وبذل المعروف كابرا عن كابر ، وفرعا عن أصل ، إذا ما انتسبوا ضمهم النسب المشرف بلا منازع نسب خير من نطق بالضاد ، النبى العربى الهاشمى المصطفى ، فاذا صرعت نظراتها شجعان خير أرومة بلا سيف مجرد ، ولا نصل محدد ، بل بسحر العيون فى حشا المفتون ، فكيف بغيرهم ممن لا يعرف له عزم ولا حزم ، ولم يتعود المجالدة والحفيظة ؟ !

(٢) قوله : جن الدجى : أى أظلم وستر ، والدجى الظلمة .

(٣) الجون : هنا السحاب الأسود ، والجون من الأضداد أى يكون الأسود ويكون الأبيض . الجنوب : الريح القبلية تجىء بالمطر . واصت : واصلت ، يقال واصاه وواصله بمعنى واحد . الصوب : نزول المطر يقال صاب يصوب صوباً ، والاسم الصيب قال الله تعالى : (أو كصيب من السماء) والصبا الريح الشرقية .

[المعنى] أطلب من الله أن يصلى على النبى المختار ما تعاقب الجديدان

نَأَى يَمَانِيًا فَلَمَّا انْتَشَرَتْ أَحْضَانُهُ وَامْتَدَّ كَشْرَاهُ غَطَا[1]

فَجَلَلَ الْأُفْقَ فَكُلُّ جَانِبٍ مِنْهَا كَأَنَّ مِنْ قُطْرِهِ الْمُزْنُ حَبَا[2]

(الليل والنهار) وجرى النيران (الشمس والقمر) فى مدارهما ، وهما لا ينقطعان ما دامت الدنيا والسموات والأرض وماجرى جون (سحاب) أبيض أو أسود ، تمده الريح القبلية بسوقه إلى أية جهة غيرها ، ثم أثرت فيه ريح الصبا الشرقية فتصبب ربيعا غدقا ، والمقصود دائما أبدا أى أطلب الصلاة عليه بلا انقطاع ، على عادة العرب فى تأبيد أى معنى أرادوا تأبيده حيث ما دام سهيل طالعا ، أو ما دامت السموات والأرض ، أو ما أشرق نجم فى السماء .

(١) نأى يمانياً : أى طلع من ناحية اليمين يريد الغيم . انتشرت : أى كثرت وظهرت . أحضانه : نواحيه وأصل الحضن مادون الإبط إلى الكشح كشراه : تثنية كشر ، وهو طنب الخباء ، وإنما كنى بالكشرين عن أذيال السحاب وهو استعارة وإنما يريد أن السحاب جرت على الأرض أذيالها . غطا : ارتفع ، وقيل انبسط يقال غطا الليل يغطو إذا انبسطت ظلمته .

(٢) قوله : جلل : أى غطى ، ومنه سمى جل الفرس جلالا لأنها تجلل به أى تغطى به . الأفق : الناحية وجمعه آفاق . من قطره : أى من ناحيته وجمعه أقطار على رواية من رواه بضم القاف ، والقطر جهة من جهات الأفق وعلى هذه الرواية يروى حبا بالباء بنقطة واحدة من أسفل ويكون معنى حبا امتلأ ودنا من الأرض لثقله بالماء يريد السحاب ويروى كأن من قطره كان حيا بالياء المنقوطة بنقطتين من تحت وقطره بفتح القاف وتقديره غطى هذا السحاب الأفق . فكل جانب : من جوانب هذه المواضع . كأن من قطره : أى من صوبه . حيا بالياء : أى خصبا . المزن : السحاب والواحدة مزنة وتصغيرها مزينة ، والقطر بفتح القاف : الماء السائل متقطعا يقال منه قطر يقطر قطراً .

وَطَبَّقَ الْأَرْضَ فَكُلُّ بُقْعَةٍ مِنْهَا تَقُولُ الْغَيْثُ فِي هَاتَا ثَوَى[1]

إِذَا خَبَتْ بُرُوقُهُ عَنَّتْ لَهَا رِيحُ الصَّبَا تُشِبُّ مِنْهَا مَا خَبَا[2]

[المعنى] اتجه هذا السحاب بسوق الجنوب له يمانيا أى جهة اليمن وهى بالنسبة للبصرة والعراق العربى تقع فى الجنوب فلما انتشرت قطعه الجليدية بسوق الصباله ضد الجنوب ، وامتد فى جو السماء سائرا فى جميع النواحى حتى كأن الرائى له يصوره بقبة غبراء جرت أذيالها على الأرض ، فغطا أى حجب وستر الضوء أن يشرق على وجه البسيطة ثم جلل الأفق أى طبقه وعمه على الرغبة فكل ناحية فيها من القطر وابل ورهام ، كأن السحاب حبا الخليقة وحياها بصيبه المخصب وغيثه العميم ، هذا ما يظهر لى قربه إلى قصد علامة الأزد من المعنيين فى الشارح عليهما وعلينا الرحمة يقال حباه مولاه بكذا إذا منحه ووهبه ، يرشدك إليه قوله بعد : وطبق الأرض الخ .

(١) قوله . وطبق الأرض : أى وغطى الأرض هذا السحاب فصار لها كالطبق . فكل بقعة . أى مكان . فى هاتا : أى فى هذه ، وهو بمنزلة هذا للمذكر . ثوى : أقام .

(٢) خبت بروقه أى أطفئت وسكنت قال الله عز وجل : (كلما خبت زدناهم سعيراً) وعنت : عرضت ومنه قول امرؤ القيس :

فعن لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار فى ملاء مذيل

تشب : توقد .

[المعنى] أن كل بقعة من الأرض تعترف بجميل هذا الغمام المطبق الذى أحياها ، أخرج منها نبتها ومرعاها ، وأسال من الجبال ذراها ، فامتلأت الغدران ، وأعمت الوديان ، فكل بقعة لها لسان حال ينطق بالثناء والغبطة قائلا : الغيث هاهنا أقام وثوى . ثم لما كانت شدة البرق وتتابعه بالإشراق

وَإِنْ وَنَتْ رُعُودُهُ حَدَا بِهَا رَاعِي الْجَنُوبِ فَحَدَتْ كَمَا حَدَا[1]

كَأَنَّ فِي أَحْضَانِهِ وَبَرْكِهِ بَرْكاً تَدَاعَى بَيْنَ سَجْرٍ وَوَحَى[2]

أمارة جودة السحاب وامتلائها بالماء. قال فى ذلك : إذا خبت أى ضعفت بروقه جمع برق - وهو ما لمع من اصطكاك السحاب بعضه ببعض والتهاب المواد الكامنة فى جلبده الكبريتية بالحركة الموجبة ، وإنما يكون ذلك بسوق الريح المسخرة بأمر الله تعالى بعضه إلى بعض ، وقد يصحب ذلك رعد وهو صوت اصطكاك السحاب المرسل بالريح بشدة بالحركة السالبة حيث تتعاند المواد الكامنة فيه فيحصل الضغط والتفارق ثم التجاذب الخ ما بين فى علوم الطبيعة الكونية الإلهية وعنت لها أى سخرت لها ريح الصبا الشرقية فساقتها تشب وتلتهب منها ما خبا أى ضعف .

(١) قوله : وإن ونت : أى ضعفت وفترت ومنه قول الله جل ذكره (ولا تنيا فى ذكرى) أى لا تضعفا ولا تفترا . حدا بها : أى ساقها بالحداء وهو صوت السائق الذى يسوق الإبل . الحادى : سائق الابل يرفع صوته ورامها بالغناء . والراعى : الذى يرعى الابل أى يحفظها . راعى الجنوب : هنا مثل . الجنوب : الريح القبلية . فحدت : ساقت . كما حدا : كما ساق .

(٢) قوله كأن فى أحضانه : أى فى أحضان هذا الأفق فالضمير فى أحضانه على الأفق وإن شئت كان عائداً على السحاب وهو أحسن ، وأحضانه نواحيه من أطرافه . والبرك الأول : الصدر . والبرك الثانى : الإبل . تداعى : أى تتداعى فحذف إحدى التائين ، والتداعى هو أن يدعو بعضها بعضا . السجر : الحنين ، والحنين طرب الناقة إلى ولدها وهو صوت شجى يقال حنت تحن حنيناً . الوحى : الصوت .

[المعنى] وإذا ضعفت رعود هذا السحاب جمع رعد ساقها ريح الجنوب مصوبا بها كحادى الإبل يحثها به على سرعة المسير ، فحدت أى ساقت بعضها

لَمْ تَرَ كَالْمُزْنِ سَوَامًا بُهَّلاً تَحْسَبُهَا مَرْعِيَّةً وَهْيَ سُدَى (١)

تَقُولُ لِلْأَجْرَازِ لَمَّا اسْتَوْسَقَتْ بِسَوْقِهِ ثِقِي بِرِيٍّ وَحَيَا (٢)

إلى بعض كما ساق أولاها وأكبرها حجما . أو المعنى صوتت كما صوت وهو أقرب للمبالغة وأنسب فى الخيال ، ثم قال : كأن فى جوانبه ومقدمه وهو صدره جماعة من الإبل تداعى وتجاذب بعضها إلى بعض بين حنين وطرب لا يصدها إن انسابت إلى بنى جنسها ونتاجها صاد ، تصوت صوتا يسيل عطفا ورقة وحنانا .

(١) المزن : السحاب . السوام : الإبل الراعية ، والمسيم الراعى للإبل السائمة يقال أسام الإبل يسيمها إسامة قال الله عز وجل : (فيه تسيمون) أى ترعون إبلكم . البهل : التى لم تحلب فتركت ضروعها ملأى من ألبانها ، وقيل البهل المتروكة بغير راع . تحسبها مرعية : أى محروسة . السدى : المهملة التى لا راعى لها قال الله عز وجل : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) ويروى سواما همالا أى متروكة .

(٢) الأجراز : جمع جرز وهى الأرض الصلبة التى لم يصبها المطر ، وقيل هى الأرض المشققة التى لم يصبها المطر ، وقيل هى الأرض المشققة التى لا تكاد تروى من الماء قال الله تبارك وتعالى : (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) وجمعه أجراز . استوسقت : أى حملت ما يكفيها من الماء ، والوسق الجمع قال الله عز وجل : (والليل وما وسق) أى وما جمع من ظلمته قوله . ثقى برى : أى اطمئنى برى أى بشبع من الماء يقال شربت حتى رويت وقوله . وحيا : أى خصب وهو مقصور .

[المعنى] لم تر إبلا سائمة ترعى فى الكلإ المباح ، بهلا تركت ضروعها ملأى باللبن بلا حلب ، تحسبها فى تسابقها وانتظام بعضها مع بعض

فَأَوْسَعَ الْأَحْدَابَ سَيْباً مُحْسِباً وَطَبَّقَ الْبُطْنَانَ بِالْمَاءِ الرَّوِى[1]

كَأَنَّمَا الْبَيْدَاءُ غِبَّ صَوْبِهِ بَحْرٌ طَمَا تَيَّارُهُ ثُمَّ سَجَا[2]

واندفاعها منضمة إلى نظائرها مرعية أى نظمها الراعى لها ، وهى فى الحقيقة سدى لا راعى لها ، وإنما تتجاذب على هواها وبطبيعتها الحنونة الألوفة كالمزن أى السحاب المنجذب بعضه إلى بعض بنظام بديع غريب حتى يعم الأفق الواسع بلا سائق مشاهد ، بل المزن فى هذه المعانى أرقى ، تقول هذه المزن بلسان حالها للأجراز أى الأراضى التى طال جفافها واشققت من شدة عطشها حين استوسقت وجمع ماؤها المتهيء للتدفق بسوق السائق غير المشاهد: ثقى أيتها الأرض الصلبة المشققة التى طال عليها أمد عطشها برى محقق ، وخصب يجعلك جنة خضراء ، ورياضا غناء .

(١) الأحداب : جمع حدب وهو ما ارتفع من الأرض وغلظ قال الله سبحانه : (وهم من كل حدب ينسلون) . السيب : العطاء . المحسب : الكافى من قولك حسبنا الله أى كافينا الله . طبق : غطى وستر . البطنان : جمع بطن وهو الغامض من الأرض . الروى : الماء الكثير إذا كسر قصر ، وإذا فتح مد .

(٢) البيداء : القفر وهى الصحراء أيضاً ، سميت بيداء لأنها تبيد سالكها . غب صوبه : عقب مطره وانتصب غب على الظرف ، وهو من الظروف ظرف زمان ، والصوب نزول المطر . طما : ارتفع . تياره : موجه . سجا : سكن قال الله تعالى : (والليل إذا سجى) أى سكن .

[المعنى] فعم صيب المزن الهطالة الأحداب المرتفعة من الأرض مع غلظها وسرى إلى باطن الأرض بالماء العذب الراوى — وكأنما الصحراء عقب تهطاله بحر طما تياره أى زخر بالماء الغزير الكثير فتموج ثم بعد الامتلاء وتساوى حافتى الوديان سكن وهدأ .

ذَاكَ الْجِدَا لاَ زَالَ مَخْصُوصًا بِهِ قَوْمٌ هُمُ لِلْأَرْضِ غَيْثٌ وَجِدَا[1]

لَسْتُ إِذَا مَا بَهَظَتْنِي غَمْرَةٌ مِمَّنْ يَقُولُ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى[2]

---

(١) الجدا : الأول فى البيت هو النائل والعطاء، و يقال الجدا المطر العام ، والذى فى آخر البيت يحتمل أن يكون أراد به الجداء بالمد الذى هو الغناء من قولهم إن فلانا قليل الجداء عنك ، أى قليل الغناء عنك ثم قصره لضرورة الشعر ، ويحتمل أن يكون أراد به المعنى الأول .

(٢) بهظتنى : شقت على يقال بهظنى الأمر أى شق على والغمرة الكربة والشدة وهى واحدة الغمرات . الزبى : جمع زبية وهى حفرة تحفر للأسد فى المكان العالى من الأرض وليس يبلغها إلا سيل عظيم ، وهو مثل تضربه العرب إذا اشتد بأحدهم الأمر ، ويروى بالراء وهو جمع ربوة ، والربوة ما ارتفع من الأرض . وفى الحديث « إن عثمان بن عفان رضى الله عنه لما عاين القتل وأيقن به كتب إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه : أما بعد يا أبا الحسن فقد بلغ السيل الزبى، وجاوز الحزام الطبيين فاذا أتاك كتابى فأقبل إلى ، على كنت أم لى » ثم تمثل ببيت العبدى وهو :

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمزق

[المعنى] ذلك العطاء الفياض ، والنوال المغنى لا يصدر إلا من قوم هم للأرض ومن عليها غيث مغيث من الجدب ، وغناء من الفقر والاحتياج . ثم قال : وإنى الرجل الذى لاأشتكى دهرى ، ولا أذل لعوزى ، فاذا غمرتنى نكبة لا تحتمل ، وألم بى خطب جلل ، لا أستغيث قائلا : بلغ السيل الزبى . وهذه المبالغة منه لا يقصد بها الحط من مقام الخليفة الإمام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، القائل هذه الجملة إعلانا منه بتهجم الطغام وسوقة الأوغاد على مقامه الشريف، واستنكارا لفعلهم الشنيع السخيف ، وإنما يقصد انه الراسخ

وَإِنْ ثَوَتْ تَحْتَ ضُلُوعِي زَفْرَةٌ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ الرُّجَا إِلَى الرُّجَا(١)
نَهْنَهْتُهَا مَكْظُومَةً حَتَّى يُرَى مُخْضَوْضِعًا مِنْهَا الَّذِي كَانَ طَغَى(٢)
وَلَا أَقُولُ إِنْ عَرَتْنِي نَكْبَةٌ قَوْلَ الْقَنُوطِ انْقَدَّ فِي الْبَطْنِ السَّلَا(٣)

الثابت الذى لا يكيل المدح جزافا ، يرشد إلى هـذا المقصود قوله بعد : وإن ثوت الخ .

(١) ثوت : أى أقامت . الزفرة : والزفير ترجيع الصوت بالبكاء وهو أن يمتلئ القلب هما وغماً والرجا مقصور : الجانب .

(٢) نهنهتها : أى كففتها وزجرتها . مكظومة : أى متجرعة من قولهم كظم غيظه إذا رده وحبسه قال الله عز وجل : (والكاظمين الغيظ) . المخضوضع : المتذلل من الخضوع وهو الذلة . طغى : كثر قال الله تعالى : (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) أى فى السفينة سميت جارية باسم فعلها لأنها جرت وقيل طغى : تكبر .

[المعنى] إن ترددت فى صدرى زفرة حزن حادة ، تملأ جانبى صدرى من شدة وقع ما أصابنى ، وألحت على فى البكاء لأفرج عن نفسى باستعبار عينى ، حبستها عن الاسترسال ، وكظمت غيظى ، وملكت نفسى ، فلا أدع ما كان طاغيا عليها ملحا فى بكائها إلا خاضعا لعزيمتى ، ذليلا أمام قوة إرادتى حتى لا يرانى أحد من الخليقة باكيا على نحو ما يقول الشاعر :

وتجلدى للشامتين أريهـــم أنى لريب الدهر لا أتوعزع

(٣) عرتنى : واعترتنى : واحد ، وهو بمعنى واحد أى أصابتنى ، قال الله عز وجل : (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) . النكبة : المصيبة وجمعها نكبات . القنوط : اليائس قال الله تعالى : (لا تقنطوا من رحمة الله) أى لا تيأسوا رتوله : انقد : أى انقطع . السلا : بفتح السين المشيمة التى تتعلق

قَدْمَارَسَتْ مِنِّى الْخُطُوبُ مَارِسًا يُسَاوِرُ الْهَوْلَ إِذَا الْهَوْلُ عَلاَ[1]

لِى الْتِوَاءٌ إِنْ مُعَادِىَّ الْتَوَى وَلِى اسْتِوَاءٌ إِنْ مُوَالِىَّ اسْتَوَى[2]

طَعْمِىَ شَرْىٌ لِلْعَدُوِّ تَارَةً وَالرَّاحُ وَالْأَرْىُ لِمَنْ وُدِّى ابْتَغَى[3]

بالولد وتسقط معه وهذا مثل تقوله العرب إذا بلغ أحدهم فى الكرب غايته قال انقد فى البطن السلا ، والسلا إذا انقطع فى بطن المرأة هلكت وقوله :

(١) قد مارست : أى عاركت وضاربت . الخطوب : الأمور الشداد واحدها خطب . المارس : الشديد وهو صفة . يساور الهول : يغالبه ويطاوله ويلاصقه قال الشاعر :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم ناقع

الهول : الشدة وجمعه أهوال . علا : ارتفع .

[المعنى] إن النكبة مهما اشتد مصابها ، وتفاقم على خطبها ، لا يجد اليأس سبيلا يصل منه إلى قلبى ، ولا القنوط منفذا يتسرب منه إلى فؤادى ، فإن ذلك من خور العزائم وخصائص البهائم ، أما الانسان الصعب ، والرجل الصلب ، إذا نزل به مد لهم فوته مع كرامته أهون عليه من أن يقول قول اليائس المهر : انقد فى البطن السلا . ثم قال لإثبات هذا : قد مارست الخ أى قد سبرتنى الأهوال فوجدتنى رجلا أصلب عودا ، وجبارا عنيدا ، وصنديدا شديدا ، تغالب قوتى ، وعلو همتى ، علو الأهوال ، مهما سامتت الجبال ، وجاوزت الأبعاد والأطوال .

(٢) قوله : لى التواء : أى انعواج . المعادى : العدو . الموالى : الصديق الذى يواليه أى يصادقه . استوى : اعتدل .

(٣) وقوله : طعمى شرى : الشرى الحنظل . تارة : حينا . الأرى : العسل الأبيض . الراح : الخمر . الود : الوداد . المودة : المحبة . ابتغى : طلب قال الله جل ذكره : (فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون) .

لَدْنٌ إِذَا لُوِينْتُ سَهْلٌ مَعْطِفِي أَلْوِى إِذَا خُوشِنْتُ مَرْهُوبُ الشَّذَا[1]

يَعْتَصِمُ الْحِلْمُ بِجَنْبَيْ حَبْوَتِي إِذَا رِيَاحُ الطَّيْشِ طَارَتْ بِالْحُبَى[2]

[المعنى] لا أترك خصمى ينال منى دون أن أنال منه بالأنكى والأشد فان مال عن الطريق السوى ملت معه كما مال ، وإن اعتدل صديقى ومن يوادنى لم أغمضه حقه ، بل أكيل له بما كال ، وأعظم له النوال . ثم قال : طعمى شرى الخ هو بمعنى قول الشاعر :

وإن لسانى شهدة يشتفى بها وهو على من صبه الله علقم

يريد يكسب برى من اتخذنى حبيبا وفيا ، ويذوق مر غضبى عليه من صيرنى له عدوا . وكأنه أراد مغزى قول القائل :

إذا المرء لم يكرم حبيبا ولم يهن عدوا ولم يبرز لقرم يحاربه

فهذا الذى إن عاش لا يعتنى به وإن مات لم تحزن عليه أقاربه

(١) اللدن : اللين الرطب . معطفى : أى رجوعى . لوينت : أخذت باللين وضده خوشنت أى أخذت بالخشونة ، وهى الصعوبة . ألوى : أكون شديد الخصومة . خوشنت : صورعت . مرهوب : مخوف ومنه قوله جل ذكره : (لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله) أى خوفا . الشذا : الحدة مقصور وقيل الشذا : الأذى وكتابته بالألف وقوله .

(٢) يعتصم : أى يتعلق ويتمسك بجنبى الحبوة : شد الإزار على الركتين والظهر ولا يعرف الاحتباء إلا للعرب والهند يقال احتبى الرجل إذا اشتمل بردائه فى وسطه ، وقيل الحبوة أيضاً أن يضم الانسان نفسه قاعداً بثوبه أو بيده ، والحبا جمع حبوة مثل كدية وكدى . الطيش : خفة العقل يقال طاش السهم يطيش طيشا إذا خف ولم يقصد الغرض ومنه قول الشاعر :

لو كان لى قرن أناضله ما طاش عند حفيظة سهمى

لَا يَطَّيبِنِي طَمَعٌ مُـــدَنِّسٌ إِذَا اسْتَمَالَ طَمَعٌ أَوِ اطَّبَى (١)
وَقَدْ عَلَتْ بِي رُتَبًا تَجَارُبُ أَشْفَيْنَ بِي مِنْهَا عَلَى سُبُلِ النُّهَى (٢)

[المعنى] إننى عند الاستعطاف وصنائع المعروف سهل القياد ، قريب الرجوع والخضوع كغصن الزيتون لدن رطب سهل الانعطاف لمن أراد ، بيد أنى شديد الخصومة مرهوب الأذى لمن خاشنى وعاملنى بالشدة على حد قول الحكيم :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى فى موضع السيف بالندى مضر كوضع السيف فى موضع الندى

ثم قال : يعتصم الحلم الخ يعنى بلغ من أناتى ، وعظيم اصطبارى ، وبعد غضبى على من أساء إلى وتمسكى بحفيظتى من أن أثور للانتقام منه وأعجل له المساءة بما أبدى : أن الحلم نفسه ليس له مأوى سوى التعلق بجانبي حبوتى ، والتحلى بهدوء قعدتى فى الوقت الذى يطير فيه صبر الحلماء ، ويضل دون الاهتداء صواب العقلاء ، وكنى عن هذا بتطيير رياح الطيش ما يحتبى به ويحفظ مريد الاحتباء من الوقوع .

(١) لا يطيبنى : أى لا يستميلنى ويدعونى . الطمع : الحرص والرغبة مدنس : موسخ والدنس الوسخ . إذا استمال : قاد وجذب .

(٢) قد علت : أى ارتفعت رتبا : منازل ودرجات ، وهى جمع رتبة . التجارب : جمع تجربة وهى الاختبار تقول جربت الرجل إذا اختبرته فأنا مجرب أى مختبر . أشفين بى : أى أشرفن بى يقال أشفيت على الشىء إذا أشرفت عليه وانتهيت إلى طرف منه . وقيل معنى أشفين بى عرفننى ، وهذه المعانى متقاربة . السبل : الطرق واحدها سبيل . النهى : العقول . قال الله تعالى : (إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) يريد أنه جرب الأمور بتجارب

إِنِ امْرُؤٌ خِيفَ لِإِفْرَاطِ الأَذَى لَمْ يُخْشَ مِنِّى نَزَقٌ وَلاَ أَذَى[1]
مِنْ غَيْرِ مَا وَهْنٍ وَلٰكِنِّى امْرُؤٌ أَصُونُ عِرْضًا لَمْ يُدَنِّسْهُ الطَّخَا[2]

كثيرة فارتفعت به إلى مراتب عالية ووقعت به على طرق العقول .

[المعنى] لا يستهوينى وينسينى حفيظتى ومغالاتى بشرفى طمع فى نوال نائل إذا استهوى الطمع محبوا المال ، ومرجحو جانب العطاء على حفظ الكرامة ، وكمال القناعة ، بل علمتنى التجارب ما علت به همتى ، وسمت به مكانتى ، فتبوأت مكان الشرفاء ، وحللت محل النبلاء ، وكنت كالتاج المرصع تزدان به رءوس الأمراء ، ومما ينسب للإمام الشافعى رضى الله عنه :

وعندى بالقناعة خير عز وهل عز أعز من القناعه
فصيرها لنفسك رأس مال وصير بعدها التقوى بضاعه
لتغنى فى حياتك عن لئيم وتحظى فى الجنان بصبر ساعه

(١) الإفراط : أن يبلغ الأمر فوق حده ، والمبالغة فى الشىء وإن شئت قلت الإفراط العجلة . النزق : الخفة .

(٢) الوهن : الضعف قال الله العزيز : (رب إنى وهن العظم منى) أى ضعف . لم يدنسه : لم يوسخه . الطخا : العيب ويقال الحبل . أصون : أحفظ ، والصيانة الحفظ والطخا ممدود فقصره .

[المعنى] أرانى لاعتدال مزاجى فى الرضا والغضب لا تخشى الناس خفتى إلى الأذى ، ولا جورى عند الانتقام ، وليس من خور أو ضعف عن النكاية بأعدائى إذا كشر أحدهم لى عن ناب أزرق ، ولكننى امرؤ أتعشق ألا يخدش عرض لم يدنس بعيب ، وليس الكريم من وادّ الأصدقاء وأبى الأحباء ، وإنما الكريم جد الكرم من لم يسرف فى نكاية الأعداء ، ولم يطعن الخصم حين نشوب الداء . فإذا لم يرتدا من غل يديه ، وقص الطال من شاربيه ، لم يخرج عن حد الاعتدال ، إلى ما هو أشبه بالافتراس والاغتيال ،

وَصَوْنُ عِرْضِ الْمَرْءِ أَنْ يَبْذُلَ مَا ضَنَّ بِهِ مِمَّا حَوَاهُ وَانْتَصَى (١)

وَالْحَمْدُ خَيْرُ مَا اتَّخَذْتَ عُدَّةً وَأَنْفَسُ الْأَذْخَارِ مِنْ بَعْدِ التُّقَى (٢)

وَكُلُّ قَرْنٍ نَاجِمٍ فِي زَمَنٍ فَهُوَ شَبِيهُ زَمَنٍ فِيهِ بَدَا (٣)

ليكون فى حالتى الرضا والسخط من بنى الانسان ، وفى المثل النبوى « الشديد من ملك نفسه وقت الغضب » .

(١) صون : أى حفظ . أن يبذل ما ضن به : أى بخل به . حواه : جمعه ، وإن شئت قلت حاز ملكه . انتصى : اختار يقال انتصاه ينتصيه ، واجتباه يجتبيه ، واعتماه يعتميه وفيه لغة أخرى إعتامه يعتامه قال الشاعر :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

(٢) قوله اتخذت : أى اكتسبت . عدة : عمدة . أنفس : أعلا وأرفع الأذخار : جمع ذخر وهو المرفوع يقال ذخرت الشىء أى رفعته وخبأته ومنه قولهم أنت ذخيرتى للدهر . التقى : مخافة الله عز وجل .

[المعنى] إنما تكون صيانة عرض المرء ببذله ما اختاره لنفسه ، واحتفظ به لكيانه ، فينفع به مع الضن به على غير أهله من هو لمعروفه أهل ، ولو كان له خصما لدودا ، وجبارا عنيدا ، فكثيرا ما قاد المعروف زمام الرجال ، وبد الانسان إحسان ، وفى قول الله العزيز الحكيم : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) ما يبرر هذا المبدأ القويم ، ثم قال : والحمد الخ يعنى أن خير ما يربحه الإنسان الكيس فى حياته الدنيا أمران لا ثالث لهما : تقوى الله العظيم أولا ، وثناء الناس وحسن أحدوثتهم عن المرء ثانيا ، وفى ذلك قول الحكيم : والذكر للانسان عمر ثان .

(٣) يقول : كل قرن : أى كل أمة فالقرن بالفتح الأمة . ناجم : مرتفع يقال نجم الشىء إذا طلع وارتفع وقوله . فهو شبيه زمن فيه بدا : أى كل

وَالنَّاسُ كَالنَّبْتِ فَمِنْهُمْ رَائِقٌ غَضٌّ نَضِيرٌ عُودُهُ مُرُّ الْجَنَى (١)

أمة طلعت فى زمان فتلك الأمة مشبهة الزمان الذى نجمت فيه أى نشأت فيه ، وهذا مأخوذ من الحديث الذى ورد « الناس أشبه بأزمانهم منهم بآبائهم » والقرن فى غير هذا الموضع الوقت من الزمان ، زعم قوم أنه أربعون سنة ، وزعم قوم أنه ثمانون سنة ، وقال قوم هو مائة سنة ، واختار بعض أهل اللغة هذا لما جاء وصح فى الحديث « أن النبى صلى الله عليه وسلم مسح بيده على رأس غلام ثم قال له « عش قرنا فعاش مائة سنة » وروى كل قرن بكسر القاف وهو النظير ، والتقدير وكل رجل نشأ فى زمان فهو شبيه بالزمان الذى نشأ فيه « لأن الرفيع لا يرتفع إلا فى الزمان الرفيع » والساقط لا يرتفع إلا فى الزمان الساقط ، وبدا بغير همز : ظهر .

(١) النبت : والنبات واحد وهو ما نبت : أى خرج من الأرض فمنه . رائق : أى معجب . الغض الطرى الأخضر الناعم وكذلك . النضير : أيضا قال الله عز وجل : (وجوه يومئذ ناضرة) أى ناعمة . الجنى : ما اجتنى من الثمر أى قطف وهو مفتوح الجيم مقصور .

[المعنى] أن كل أمة نشأت فى أى عصر فهى تابعة لعصرها الذى فيه تربت وترعرعت أيا كان نوعه ، فان كان عصر بر وخير ، وجمال وكمال ، فهى أمة المجد والعز والشرف محمودة الخبر ، طيبة الأثر ، وتامة العرفان ، قوية السلطان ، وإن كان عصر محق وبلاء ، واستهتار بما بدا بين الأرض والسماء وخاصم المجموع منها العلماء والحكماء ، وغمطوا حقوق النبغاء ، وأعرضوا عن العقلاء ، فهى أمة الذلة والمهانة ، منهوكة العرض والصيانة ، تجنى بما اقترفت يداها الآثمتان البوار والدمار ، والعار والشنار ، وانقسامها على نفسها ، وإنما الناس كالنبت الطيب والخبيث فالأول كما وصفه الله جل شأنه بقوله تعالى :

وَمِنْـــهُ مَا تَقْتَحِمُ الْعَيْنُ فَإِنْ ذُقْتَ جَنَاهُ أَنْسَاغَ عَذْبًا فِي اللَّهَا(١)

يُقَوِّمُ الشَّارِخُ مِنْ زَيْغَانِهِ فَيَسْتَوِي مَا انْعَاجَ مِنْهُ وَانْحَنَى(٢)

(كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) يروق الدانى وداؤها ويعم نفعها ، والثانى كما قال جل شأنه : (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم) كالحنظل خضر نضر غير أنه مر المذاق إذا ازدرد فتت الأمعاء ، وألهب الداء ، كذلك بنو الانسان وأفراد المجتمع البشرى البعض حميد الخصال ، لذيذ المقال . شريف المبدإ نافع فى المجتمع ، والبعض الآخر أدنى من البقر العجاف ، والسم الزعاف ، لا يرجى خيره ، ولا يبعد عن المجتمع شره . وأهل الفراسة فى مملكة سيام يقولون إن كل فرد من بنى الإنسان له نظير فى أفراد الحيوان لا ينقص عنه شيئا فى العادة والخلق .

(١) تقتحم العين : أى تتركه كرها له وتعدوه إلى غيره . فان ذقت جناه : أى ما اجتنى منه . انساغ : أى سهل بلعه : عذبا : أى حلواً . اللها : بفتح اللام جمع لهاة وهى اللحمة المتعلقة بأصل الحنك ، واللهى بالضم جمع لهوة وهى المال والعطية ، والاصل فى اللهوة بالضم ما يجعله الطاحن فى فم الرحى ليطحن ، الواحدة لهوة ولهية .

(٢) الشارخ : الشاب الحديث المستقبل للشباب ، وشرخ الشباب أوله زيغانه : بالزاى والغين ميله ، يقال زاغ الشىء اذا مال يزيغ زيغاً قال الله جل ذكره : (وإذ زاغت الأبصار) أى مالت وقوله : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) . انعاج : انعطف . انحنى : مثله .

[المعنى] فى هذا البيت والذى قبله : أن مظاهر الناس ودخيلتهم كمظاهر النبات ودخيلته ، فكما ترى نبتا يأخذك الإعجاب بنضرة عوده ، وامتداد ساقه ، وحسن روائه ، فاذا ذقت ثمره وجناه كان المر العذاق ، والطعم الذى لا يطاق ،

وَالشَّيْخُ إِنْ قَوَّمْتَهُ مِنْ زَيْغِهِ لَمْ يُقِمِ التَّثْقِيفُ مِنْهُ مَا الْتَوَى (١)

كَذٰلِكَ الْغُصْنُ يَسِيرٌ عَطْفُهُ لَدْنًا شَدِيدٌ غَمْزُهُ إِذَا عَسَا (٢)

وترى نبتا آخر تقتحمه عينك وتزدريه لرداءة منظره وقبح رواته حتى إذا ذقت جناه وجدته عذبا شهيا، سائغا هنيا، تقر به العين، وينشرح له الصدر، كذلك ترى من بني الإنسان من تغتر بمظهره، وما شاع بين الناس من لطيف مخبره، فاذا حككته بمحك العشرة واختبرته وسبرت غوره، بدا وكأنما قرد يقهقه أو عجوز تلطم، وترى من لا تعيره التفاتا، ولا تقيم له وزنا لدمامة فى خلقه، أو إهمال فى قيافته وتنظيم هندامه حتى إذا خالطته أعجبك منه حسن خلاله، وشريف خصاله، وربما لمت نفسك على التفريط فى واجبه، ثم قال علامة الأزد: يقوم الشارخ الخ يعنى أن الشاب فى حداثته قابل للثقافة والتعليم، وتقويم ما اعوج من أمره وأساء فى فعله، كالأرض الخصبة القابلة للاستثمار.

(١) قوله: من زيغه: أى من ميله. لم يقم: لم يعدل ولم يقوم. التثقيف التقويم. ما التوى: أى ما تعوج.

(٢) كذلك الغصن: أى الفرع. يسير: سهل. عطفه: رده. واللدن: اللين. والغمز: هنا اللمس باليدين والتقويم. عسا: صلب ويروى عتا بتاء بنقطتين من فوق ومعناه أيضاً صلب.

[المعنى] أن الشيخ وهو فى اللغة من بلغ الأربعين عاما والمراد به هنا من انقضى زمن شبابه فى غير ثقافة علمية أو تجارب اجتماعية، إذا اعوج منه أمر وأردت إصلاحه أو تقويمه بشتى الوسائل لم يقم تثقيفك له ما التوى من أمره للعادة المتأصلة فيه، والاستبداد بالرأى المتغلغل فى لبه منذ نشأ وشب، ومن شب على شئ شاب عليه. فهو كأرض صخرية أو قاع عرفج

مَنْ ظَلَمَ النَّاسَ تَحَامَوْا ظُلْمَهُ وَعَزَّ عَنْهُمْ جَانِبَاهُ وَاحْتَمَى (١)
وَهُمْ لِمَنْ لَانَ لَهُمْ جَانِبُهُ أَظْلَمُ مِنْ حَيَّاتِ أَنْبَاثِ السَّفَا (٢)

لا ينبغى الكلأ ولو خالطه الربيع وفى المثل من شعر بديع :

ذهبت إلى العطار يصلح عيبها ولن يصلح العطار ما افسد الدهر

وقوله كذلك الغصن الخ يعنى : أن الشبان والشيوخ كالغصن رطبا ويابسا فكما يمكن تقويم الغصن ما دام لدنا رطبا كذلك الشبان ما داموا فى شرخ الشباب ، وكما لا يمكن تقويم ما اعوج منه إذا يبس وعتا فكذلك الشيوخ متى صلبت أعوادهم وجمدت أفكارهم :

إن الأمور إذا قومتها اعتدلت ولا يلين إذا قومتـــه الخشب

وليس يقصد علامة الأزد تعطيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأنهما لا يفيدان الشيوخ بل يعنى أن الثقافة زمن الشباب يتحقق نفعها وتربو آثارها حيث ينغرس فى القلب حبها والعمل بها .

(١) من ظلم الناس : أى تعدى عليهم وأضر بهم ، وأصل الظلم وضع الشىء فى غير محله ، وزعم قوم أن الظلم إنما هو أخذ الإنسان ما ليس له ، ومنه قولهم من أشبه أباه فما ظلم، أى ما وضع الشبه فى غير ماليس له ، وهذا يرجع إلى ما قلناه إنه وضع الشىء فى غير موضعه لأنه إذا أخذ ما ليس له فقد وضع الشىء فى غير موضعه . تحاموا ظلمه : تباعدوا عنه وامتنعوا منه . وعزعنهم : امتنع عنهم ، والعزة القوة والشدة ، ومنه قولهم إذا عز أخوك فهن ، ومنه قول الله عز وجل : (وعزنى فى الخطاب) أى غلبنى فى الخطاب ونحوه قوله جل ذكره : (ليخرجن الأعز منها الأذل) أى ليخرجن القوى منها الضعيف . جانباه : ناحيتاه . احتمى : امتنع .

(٢) لان : ضعف وسهل . الأنباث التراب المستخرج من البئر ، يقال نبث ينبث إذا حفر واسم الفاعل نابث ونباث قال الشاعر :

يهيل ويذرى تربها ويثيره إثارة نباث الهواجر مخمس

... ...

أى مستخرج للتراب . السفا : هنا التراب ، وهو ما تسفيه الريح أى تحمله وترمى به ، وقيل السفا تراب القبر ، والسفا فى غير هذا شوك البهمى وشوك السنبل .

[المعنى] إن نفوس العباد جبلت على الظلم وقهر الغير وحب الظهور بقوة الغلبة ونفوذ السلطان بداعى التنازع فى البقاء ، والتمتع بالحياة ، ويخيل لكل نفس أنها متى قهرت ضاعت حياتها ، وانسدت سبل الاستثمار أمام ناظرها ، لهذا كان طبعيا أن تميل إلى السيطرة على مال الغير من ملك وانتفاع كما قال الشاعر غير مبالغ :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وإنما يسلم من عاديات الخلق وامتداد أيديهم إلى ما يملك من حول وقوة إذا هو سبقهم إلى ما يتعشقونه ، فتغداهم قبل أن يتعشوه ، وظلمهم قبل أن يظلموه ، وحينئذ يتقون شره ، ويحذرون ضره ، ويعز جانباه من أن ينال منهم بسوء ، أو يتعدى عليه أى معتد ، كما أنهم أظلم من حيات القبور ، وعقارب السفا بين طيات الصخور ، لمن لان جانبه وأبعد عنهم أذاه وهو بمغزى قول الشاعر :

من يحذر الناس مات هما وفاز باللذة الجسور

ثم ينبغى أن يقال إن علامة الأزد لا يقصد بالبيتين حض الناس على الظلم ، فان هذا مبدأ فوضوى همجى لا يليق بعلامة أديب ، وحكيم أريب ، وإنما يقصد أن الخنوع والخضوع للحد المذرى لا يليق بمن يريد الحياة مع الخلق المتذئب ، ومن لم يتذأب تأكله الذئاب ، فالمقصود أن يعرف شجاعا فيخاف بطشه إذا هو استغضب ، أى الضيم إذا هو سلب ، فيذهب عنه كل أذى وشر ، وكفى أنه لا يضر ، وتمتلىء العين به مهابة وإجلالا .

عَبِيدُ ذِي الْمَالِ وَإِنْ لَمْ يَطْعَمُوا مِنْ غَمْرِهِ فِي جُرْعَةٍ تَشْفِي الصَّدَى (١)
وَهُمْ لِمَنْ أَمْلَقَ أَعْدَاءٌ وَإِنْ شَارَكَهُمْ فِيمَا أَفَادَ وَحَوَى (٢)

---

(١) الغمر : الماء الكثير الذى يغطى من دخله ، وهو ههنا العطاء ، يقال رجل غمر أى واسع الخلق كثير العطاء . الجرعة : القليل من الماء مثل الحسوة تشفى : تبرى . الصدا : العطش وهو مصدر صدى يصدى صدى .

(٢) أملق : افتقر والإملاق الفقر قال الله عزوجل : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) أى فقر ومنه رجل ملق أى فقير ، وكذلك مخفق وصعلوك ومقتر ومصرم والمصرم الذى ذهبت إبله ورجل سبروت أيضاً وامرأة سبروتة وسبريتة وقوم سباريت ، وكذلك قرضوب وقرضاب أى فقراء . أفاد : أكسب . يقال أفاد الرجل مالا إذا أكسبه . وحوى : ملك وجمع .

[المعنى] أن الناس جبلوا على احترام أرباب الأموال ولو لم يضربوا فى الحسب والنسب بسهم ، بل ولو لم يستفيدوا من مال الغنى جرعة ماء تنقع غلتهم ، أو مضغة من طعام تسد رمقهم ، أو بنسا من فلس يقضى حاجتهم ، بل ولو ضم ضحضاحهم إلى غديره ، وتوحش كالليث فى عرينه ، كما جبلوا على استرذال من أملق ، ولو انتسب إلى مجد مؤثل وشرف محقق ، بل ولو بذل لهم كل ماملك ، أو شاركهم فيما استفاد ، فهو المقتحم المرذول ، والثقيل المبتذل ، وما أفاده علامة الأزد فى هذين البيتين من خلق اجتماعية ، وزهرة طبعية وفلسفة منطقية هو الواقع الذى لا شك فيه ، حتى بين طبقات المثقفين ، ما داموا مخاريق ماديين ، ومن نظم أهل العرف العام فى ذلك قولهم :

إن قل مالى فما خل يصادقنى أو زاد مالى فكل الناس خلانى

وإنما تتجلى لك هذه الزهرة متفتحة البراعم بين القرويين فى سادتهم الطغام ، الذين سابقوا فى الجشع أشعب ، ودنسوا الإنسانية دنس الكلب

عَاجَمْتُ أَيَّامِي وَمَا الْعِزُّ كَمَنْ تَأَزَّرَ الدَّهْرُ عَلَيْهِ وَارْتَدَى(١)

لاَ يَرْفَعُ اللُّبُّ بِلاَ جَدٍّ وَلاَ يَحُطُّكَ الْجَهْلُ إِذَا الْجَدُّ عَلاَ(٢)

الأجرب ، أعاذنا الله وأهل المعرفة الحقة والخلق المطبوع من هـذا الخلق الدنيء . فما المال إذا قيس بالخلق إلا كقلامة الأظافر ، ولقد تمثلت السيدة خديجة الكبرى أم المؤمنين رضى الله عنها حين قال لها قومها : كيف تتزوجين محمدا وهو فقير ؟ ! فقالت :

إذا سلمت رءوس الرجال من الردى فما المال إلا مثل قص الأظافر

(١) عاجمت أيامى : أى ماضغتها يقول مضغتنى ومضغتها وعركتنى وعركتها . الغر : الذى لم يجرب الأمور . تأزر : من الإزار كأنه يريد أنه جرب الدهر حلوه ومره فكأن الدهر تغلب عليه بأحواله حلوها ومرها .

(٢) قوله : لايرفع اللب : وهو من الرفعة أى لاتعلو منزلته ، ويروى لاينفع من النفع الذى هو ضد الضر ، واللب العقل وجمعه ألباب . الجد : بالفتح الحظ والبخت . ولايحطك الجهل : أى لاينزلك ولايسفلك ، ويروى ولا يحبطك الجهل أى لا يبطل حظك ولا يسقط رفعتك ، ومنه قوله جل ذكره : (وأحبط أعمالهم) أى أبطلها . إذا الجد علا : أى إذا السعد ارتفع .

[المعنى] لقد مضغتنى أيامى ومضغتها ، وجربتنى وجربتها ، فأنا بها خبير ، وبتقلباتها بصير ، ولا يستوى المدره المرن المحنك ، بالغر الحسن الظن بدهره وناسه ، فإن الأخير ناقص قال الشنفرى :

وحسن ظنك بالأيام منقصة فظن شرا وكن منها على وجل

ثم قال : لا يرفع اللب الخ يعنى أن عقل العاقل وعلمه لا يرفع شأنه بين الخلق الهوج بلا مال يكبره فى نظرهم القاصر ، وتفكيرهم الفاتر ، كما لا يحط قدره بينهم تبلده وجمود قريحته وجهله متى سعد حظه وعلا جده . وهذه النظرية أثر للنظرية الأولى ما دام الخلق عبيد المال .

مَنْ لَمْ يَعِظْه الدَّهْرُ لَمْ يَنْفَعْهُ مَا ... رَاحَ بِهِ الْوَاعِظُ يَوْمًا أَوْ غَدَا(١)

مَنْ لَمْ تُفِدْهُ عِبَرًا أَيَّامُهُ ... كَانَ الْعَمَى أَوْلَى بِهِ مِنَ الْهُدَى(٢)

مَنْ قَاسَ مَالَمْ يَرَهُ بِمَا يَرَى ... أَرَاهُ مَا يَدْنُو إِلَيْهِ مَا نَأَى(٣)

---

(١) من لم يعظه الدهر : أى من لم يبصره . راح : أتى بالعشى ، واغتدى أتى بالغدو .

(٢) من لم تفده : أى تكسبه مأخوذ من أفاد يفيد إذا أكسب . العبر : جمع عبرة وهى التذكرة . العمى : هنا عمى القلب وهو انطماس ذكائه . الهدى : القصد إلى الصواب .

[المعنى] من لم يتخذ من حوادث الزمن عبرة وهداية يتبصر بهما فيما يعرض له من أحوال لم ينتفع بعظة الواعظ ولو نصح ليل نهار ، وصباح مساء ، فان القول مهما بلغ منطق سحبان ، وفصاحة حسان ، أقل تأثيرا فى القلب من التجربة الفعلية ، فمن لم تفده أيامه عبرا وحنكة وخبرة بكثير من الأمور كان أولى بأن يتصف بعمى البصيرة وفقد الذكاء ، من أن يعد فى عداد العقلاء .

(٣) من قاس : من مثل ، والقياس فى اللغة التمثيل وحده عند الأصوليين أن يقال القياس : حمل أحد المعلومين على الآخر بمعنى يجمع بينهما ، وقيل حد القياس رد فرع إلى أصل فى بعض الأحكام بمعنى يجمع بينهما ، وقيل القياس : رد الشىء فى الحوادث إلى نظيره وقوله : أراه ما يدنو : أى ما يقرب ما نأى : ما بعد يقال نأى ينأى نأيا ومعنى هذا البيت . يقول من كان عاقلا عارفا بالأمور تبين له ماغاب عنه بما ظهر له بقياس عقله وحسن رأيه وأدبه .

مَنْ مَلَّكَ الْحِرْصَ الْقِيَادَ لَمْ يَزَلْ ... يَكْرَعُ فِي مَاءٍ مِنَ الذُّلِّ صَرَى (١)

مَنْ عَارَضَ الْأَطْمَاعَ بِالْيَأْسِ رَنَتْ ... إِلَيْهِ عَيْنُ الْعِزِّ مِنْ حَيْثُ رَنَا (٢)

مَنْ عَطَّفَ النَّفْسَ عَلَى مَكْرُوهِهَا ... كَانَ الْغِنَى قَرِينَهُ حَيْثُ انْتَوَى (٣)

---

(١) من ملك الحرص : الحرص الاجتهاد فى طلب كل مرغوب فيه مع كثرة الموانع منه . يقال حرص يحرص فهو حريص . والقياد : الطاعة من قولك قدت الدابة فانقادت لى : أى أطاعتنى . يكرع : أى يخوض فى الماء ، ويقال أيضا كرع الإنسان فى الماء يكرع كروعا إذا شربه . الصرى : الماء الدائم الذى قد طال مكثه فتغير فيه ، والصرى من اللبن أيضا ما طال مكثه فى الضرع ولم يحلب ، والصرى جمع ، والواحدة صراة ، ويقال شاة مصراة إذا حلبت فى ثلاثة أيام حلبة ، وحكى الفراء صرت الناقة وصريت لغتان فعلت وفعلت ، وأصل التصرية الجمع .

[المعنى] من قدر ما غاب عن حسه الظاهر بما شاهده أظهر له هذا التقدير ما خفى عنه وقرب إليه البعيد ، فيحكم على ماسيكون بحكم ماهو كائن ، ما دام متحدا معه فى رتبة الإمكان . ومن ملك الحرص والشح زمامه تجرع كؤوس الذل والمهانة فى كثير من أموره وغالب أحيانه ، حيث لا كرامة مع الحرص الشديد ، ولا لذة للحياة مع فقد الكرامة ، ولا يزال الحريص يشرب ماء حياته آسنا كدرا ، وغصا غير سائغ ، منحط القدر قليل الاعتبار ، قال الحكيم :

ببذل وحلم ساد فى قومه الفتى ... وكونك إياه عليك يسير

(٢) الأطماع : جمع طمع . اليأس : انقطاع الرجاء . رنت : نظرت .

(٣) عطف : أمال ورد . كان الغنى قرينه : أى صاحبه . حيث انتوى : أى حيث نوى وهو من النية ومعنى النية القصد ، يقال نويت أمر كذا أنويه

مَنْ لَمْ يَقِفْ عِنْدَ انْتِهَاءِ قَدْرِهِ تَقَاصَرَتْ عَنْهُ فَسِيحَاتُ الْخُطَا(١)

مَنْ ضَيَّعَ الْحَزْمَ جَنَى لِنَفْسِهِ نَدَامَةً أَلْذَعُ مِنْ سَفْعِ الذَّكَا(٢)

نية إذا قصدته وقيل حيث انتوى حيث بعد ، وهو من النوى أى البعد وجاء على بناء افتعل .

[المعنى] من حارب أطماع النفس فيما ملكته يد الغير باليأس منه وقطع الرجاء فى الحصول عليه وتعويد النفس عدم الرغبة فيه نظرت إليه عين العز والمجد والشرف من حيث نظر ، وهذا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : « ازهد فيما فى أيدى الناس تحبك الناس » ومن حبس النفس على ما تكره من الجد والاجتهاد وكفها عن السرف والتبذير وكبح جماحها عن سيرها فى ميادين شهواتها كان غنى النفس والمال قرينيه فى كل ما نوى الغنى والسراء فيه .

(١) انتهاء قدره : غاية قدره . تقاصرت : قصرت . فسيحات : واسعات . فلاة فسيحة : أى واسعة . الخطا : جمع خطوة ، وكتابته بالألف لأنه يرجع إلى الواو فى قولك خطوات فى الجمع ، وخطوت إذا رددت الفعل الى نفسك ويخطو فى المستقبل .

(٢) من ضيع : ترك ، والمضيع التارك . الحزم : الاحتراس فى الأفعال والاستعداد للأمور قبل وقوعها . جنى لنفسه ندامة : أى قادها إليها كما يجنى الثمرة أى يجمعها ويقطعها ، ويجوز أن يكون جنى بمعنى جر على نفسه ندامة فتكون اللام فى نفسه بمعنى على ، وندامة حسرة وتأسفا . ألذع : أشد حرقة . السفع : الإحراق . الذكا : التهاب النار مقصور يكتب بالألف لأنه من ذوات الواو ، يقال ذكت النار تذكو ذكوا وأما الذكاء من الفهم فممدود ، وكذلك الذكاء بمعنى السن من العمر قال زهير :

يفضله إذا اجتهدا عليه تمام السن منه والذكاء

مَنْ نَاطَ بِالْمُجْبِ عُرَى أَخْلَاقِهِ نِيطَتْ عُرَى الْمَقْتِ إِلَى تِلْكَ الْعُرَى (١)

والذكاء مضموم الأول ممدود اسم الشمس ، ويقال للصبح ابن ذكاء ، وهو غير مصروف لعلتى التأنيث والتعريف قال الراجز :

وردته قبل انبلاج الفجر وابن ذكاء كامن فى كفر

يعنى أن الصبح كامن فى سواد الليل لأن الكفر فى اللغة التغطية فكأن سواد الليل كفر الصبح أى غطاه .

[المعنى] أن ذا الهمة الكبيرة ، والنفس المتوثبة ، لا يقف عند حد محدود من العمل المثمر ، والمنزلة العالية المرجوة . بل كل ما وصل إلى كمال طلب الأكمل منه ، ما دام فى مناط قدرته ومحل اختياره فتتقاصر عن إدراك غايته همم الرجال ، وقوى الأبطال ، وحينئذ لا يندب حظه ، ولا يحسد غيره منشدا قول اليائس العاجز :

تقدمتنى أناس كان خطوهم وراء خطوى لو أمشى على مهل

بل ينشد :

وما أنا راض أننى واطىء الثرى ولى همة لا ترتضى الأفق مقعدا

ومن ضيع الحزم والعزم وكسر حدة الإرادة وفت فى عضد نفسه عن إدراك المعالى والعوالى ، فقد جر على نفسه حسرة وندامة أشد لذعا فى الجسم من لذع جمر الغضى وأحز فى النفس من ذبح المدى ، من حيث لا تجدى إحداهما بعد فوات الوقت وبعد الغرض .

(١) قوله : من ناط : أى علق وألصق . يقال ناط فلان الشىء ينوطه نوطاً فهو نائط والشىء منوط أى معلق والنياط عرق غليظ علق به القلب وجمعه أنوطة فترد الياء الى الواو لأنها فى النياطة مبدلة من واو . عرى : جمع عروة وهو ما يتمسك به أى يتعلق به . أخلاقه : طبائعه . نيطت . علقت ، المقت أشد البغض يقال فلان مقيت ومقوت . يقول من كان ذا عجب وقرن ذلك بأخلاقه قرن ذلك العجب بشدة البغض له .

مَنْ طَالَ فَوْقَ مُنْتَهَى بَسْطَتِهِ أَعْجَزَهُ نَيْلُ الدُّنَا بَلْهَ الْقُصَا[1]

---

(١) قوله : من طال : أى من ارتفع ، والبسطة الفضلة يفضل بها الانسان على غيره ، ومنه قول الله تبارك وتعالى: (وزاده بسطة فى العلم والجسم) وقوله أعجزه نيل الدنى : أى أضعفه وقصر به ، وقيل فاته ، والنيل الادراك ، والدنى جمع الدنيا وهو الشىء القريب . القصا : جمع القصوة وهو الشىء البعيد قال الله جل ذكره : (إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى) وبله بمعنى غير ، وقيل بمعنى دع ، وفى الحديث « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، بله ما اطلعتم عليه» يريد غير ما اطلعتم عليه ، فاذا كانت بمعنى غير كان ما بعدها مخفوضا على الإضافة ، وإذا كانت بمعنى دع كان ما بعدها منصوبا مفعولا ببله لأنها تضمنت معنى دع كما تقول دع زيدا ، وأنشد النحويون قول الشاعر :

تذر الجماجم ضاحيا هاماتها بله الأكف كأنها لم تخلق

معناه تفعل هذا فى الجماجم دع الأكف كأنها لم تخلق أو غير الأكف ، وكذلك يقول ابن دريد رحمه الله من طال فوق قدره أعجزه نيل الدنى ، وهى الأمور القريبة بله القصا فانك لا تدركها إذا لم تدرك القريب .

[المعنى] أن من امتلأ عجبا بنفسه أو عمله أو ماله وما إلى ذلك من حاه وولد وخول وخدم فقد غرس فى قلوب الخليقة مقته ، وألبهم عليه من حيث يشعر ولا يشعر ، والعجب من أمراض القلوب ونقص العقول إذ يجر إلى التهاون والاستخفاف بغيره ، فيترك واجبهم فيقابل بالمثل أو أنكى وأشد ، كذلك من رفع نفسه فوق قدرها ، وتمدد أطول من قامته وغاية بسطته لينال ما لا يناله مثله ، و يطلب ما لا يرتفع له قدره ، فقد كلف نفسه أمرا إداً ، وكان كجعل يريد أن يسابق فى تسلق الأشجار قردا ، أو كعصفورة

مَنْ رَامَ مَا يَعْجَزُ عَنْهُ طَوْقُهُ مِلْعَبُهُ يَوْمًا آضَ مَجْزُولَ الْمَطَا (١)

وَالنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمُ كَوَاحِدٍ وَوَاحِدٌ كَالْأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَنَى (٢)

أرادت أن تبيض بيضة النعامة ، فمثل هذا يعجز عن نيل القصير فضلا عن الطويل ، والقليل بله الكثير ، وعن الدنا وبالأولى عن القصا .

(١) من رام : من طلب . مايعجز : أى ما يقصر عنه . طوقه : طاقته يقال طاقة وطوق بمعنى القوة . قال معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما لما حضره الموت :

إن تعذب يكن عذابك يارب غراما لاطوق لى بالعذاب

أو تجاوز فأنت رب عفو عن مسىء ذنوبه كالتراب

والطوق أيضا فى غيرهذا حلى يجعل فى العنق ، وكل شىء استدار فهو طوق وقوله : ملعبه : أصله من العبء . فحذف النون والألف ووصل الكلام ، والعبء : الثقل ، وجمعه أعباء . آض : رجع . المجزول : المقطوع ، والجزلة من اللحم القطعة منه ، والمطا الظهر .

(٢) وقوله : إن أمر عنى : أى قصد ، وقد يكون من العناء وهى المشقة ، ويقال أيضا عنانى الأمر إذا لزمنى .

[المعنى] من قصد أن ينال ما لا طاقة له فى الحصول عليه ، وتجشم أسبابه ، ومشقة السعى وراءه كان كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ، وعاد بخفى حنين مقطوع الظهر بالعبء الثقيل الذى لا يحمل ظهره مثله - وربما كانت الرواية بالعبء فينتفى التكلف مع استقامة المعنى والوزن ، ثم قال : والناس الخ هو بمعنى قول القائل : وكل ألف لا يعد بواحد . يعنى ليست الكثرة محل اعتبار الإنسان ، ومعقد عزه وعلو همته ومنبع فضله ، فقد يقوم الفرد بما لا تقوم به الجماعة ، وينال من سمو المكانة ما تقاصرت عنه زرافات الأفراد كسيد الخليقة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الكامل

وَلِلْفَتَى مِنْ مَالِهِ مَا قَدَّمَتْ ... يَدَاهُ قَبْلَ مَوْتِهِ لَا مَا اقْتَنَى (١)

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ ... فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى (٢)

فيما عمله الفرد للجماعة من إصلاح عجزت عنه الملايين ، وثقافة علمية عم فضلها وانتفع بها سائر سكان المعمورة شرقيون وغربيون ، شماليون وجنوبيون ، وكأقطاب الصحابة أمثال خالد بن الوليد ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص ، والامام علي بن أبي طالب ، وكأبي مسلم الخراساني في عهد العباسيين وكأبطال اليوم كمصطفى كمال التركي وعصمت الكردي فكل واحد ممن ذكروا كمليون أو يزيد إن عنى أمهم أمر يستدعي ساسة مفكرين ، وقوادا ماهرين ، ورجالا مخلصين عاملين .

(١) قوله : اقتنى : أي اكتسب ، وقيل ادخر قال الله عز وجل : (وأنه هو أغنى وأقنى) أي أعطى ما يدخر .

(٢) قوله : لمن وعى : أي حفظ . يقال وعى يعى وعيا قال الله عز وجل : (وتعيها أذن واعية) ويقال وعى جمع وبهذا فسرت الآية .

[المعنى] أن المال عرض زائل ، وظل حائل ، فليس يخلد منه إلا ما أنفق في عمل البر ونفع الناس بالطرق المشروعة السماوية ، والأوضاع الإلهية ، لا يضاف منه إلى صاحب اليد إلا ما بذله فيما يدوم نفعه ، ولا يضيع عند الجليل عوضه وأجره ، فما حرص عليه غير الباذل في البر من مال وعقار ، واقتناه من نتاج واستثمار ليس له ، وإنما هو حارس عليه يتنقل بعد موته غير مأسوف عليه لخلفه وكم بدد الخلف ما جمع السلف قال تعالى : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى وأنه هو أغنى وأقنى) .

إِنِّى حَلَبْتُ الدَّهْرَ شَطْرَيْهِ فَقَدْ ... أَمَرَّ لِى حِينًا وَأَحْيَانًا حَلَا[1]

وَفَرَّ عَنْ تَجْرِبَةٍ نَابِى فَقُلْ ... فِى بَازِلٍ رَاضَ الْخُطُوبَ وَامْتَطَى[2]

وَالنَّاسُ لِلْمَوْتِ خَلًا يَلْسُهُمْ ... وَقَلَّ مَا يَبْقَى عَلَى اللَّسِّ الْخَلَا[3]

---

(١) حلبت الدهر : أى جربته . شطريه : نصفيه وهذا مثل ، وأراد بشطريه أول زمانه وآخره أو نعيمه وبؤسه . فلذلك ثناه تقول شطرت الشئ إذا جعلته نصفين فهذا صرف منه فعل ، وأما الشطر الذى هو القصد فلا يستعمل منه فعل قال الله عز وجل : (فول وجهك شطر المسجد الحرام) أى قصده وتلقاءه .

(٢) قوله : وفر عن تجربة نابى : أى كشف عن أمرى وهذا مثل مأخوذ من قولهم فر عن الدابة إذا فتح فاها ليعرف سنها وينظر صغرها من كبرها ، والناب الضرس الذى يلى الرباعية . راض الخطوب : أذلها يقال رضت الفرس إذا ذللته ، والبازل من الإبل الذى أتت عليه تسعة أعوام ، والخطوب الأمور النوازل واحدها خطب . وامتطى : الدابة ركبها وجعلها مطية .

[المعنى] أنى قتلت الزمان بحثا وتنقيبا ، وحككته بمحك النظر والاعتبار وعرفت أوله وآخره ، ونعيمه وبؤسه ، وصفاءه وتقلبه ، فمرة لذ وحلا ، ومرة بدا كقذى الشجا ، وإن رجلا كشف عن نابه الدهر فثبته أو أزاله لمجرب للأمور محنك ، فقل ما شئت فى من هو كالجمل عمر وخبر وسبر وصبر على المشاق فأذل الخطوب ولم يمتط غير الصعاب .

(٣) الخلا : الحشيش الرطب . يلسهم : يأكلهم ، واللس : أن تأخذ الماشية الخلا الرطب بمقدم فيها يقال فى تصريفه : لست الدابة الخلا تلسه لسا فهى لاسة إذا أخذته بمقدم فيها ، وهذا مثل مضروب للموت والناس .

عَجِبْتُ مِنْ مُسْتَيْقِنٍ أَنَّ الرَّدَى إِذَا أَتَاهُ لا يُدَاوَى بِالرُّقَى[1]
وَهْوَ مِنَ الْغَفْلَةِ فِي أَهْوِيَةٍ كَخَابِطٍ بَيْنَ ظَلامٍ وَعَشَا[2]
نَحْنُ وَلا كُفْرَانَ لِلّهِ كَمَا قَدْ قِيلَ لِلسَّارِبِ أَخْلَى فَارْتَعَى[3]

---

(١) مستيقن عالم، الردى : الهلاك قال عز وجل : (واتبع هواه فتردى) وتصريفه ردى يردى ردى . الرقى : جمع رقية .

[المعنى] أن الناس أمام الموت كالحشيش الأخضر أمام الحيوانات السوائم يتناولهم تباعا لا يبقى ولا يذر لافرق لديه بين صغير وكبير ، وعظيم وحقير ، كما تتناول البهائم بألسنتها هذا اللس فتقضمه قضما ، وتهصره هصرا ثم تزدرده كأن لم يكن أب وترعرع ، واخضر وفرع ، حتى تدع موضعه أجرد يراه الناظرون بعد حسن منظره أسود ، وإن عجبي ليزيد ممن تيقن أن الهلاك رائده ، والفناء مصيره ، وأنه إذا حم القضاء وانتهى الأجل لم تنفعه الرقى ، ولم تدفع سطوته التمائم ، ثم لا يقبل فيه العوض وهو مع ذلك فى غفلة عما يعده لحياته المستقبلة الدائمة ، وروحه الباقية الخالدة ، وما الحياة الأولى إلا قنطرة للثانية قال تعالى (ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين) .

(٢) الأهوية الغامض من الأرض وهى الحفرة التى يضيق أعلاها ويتسع أسفلها . الخابط : الذى يمشى ليلا بغير مصباح فربما وقع فى بئر أوسقط على شيء وهو لا يدرى أين يجعل رجليه فيطأ كل شيء وهو لا يراه . العشا : ضعف فى البصر يقال رجل أعشى وامرأة عشواء .

(٣) ولا كفران لله : أى ولا جحد لله والكفران والكفر واحد ، وأصل الكفر التغطية يقال كفر فلان النعمة إذا عرفها وكتمها ويقال لليل كافر لأنه يستر بظلمته ، وسمى الزارع كافراً لأنه إذا ألقى البذر فى الأرض كفره أى غطاه قال الله عز وجل : (كمثل غيث أعجب الكفار نباته)

... ...

والكفار ههنا الزراع ، ويقال جاء فلان فى ألف كافر يريد فى ألف فارس ممن غطى عليه السلاح وسمى طلع النخل كافوراً لاستتاره فى أغطيته ، وأحسن ماقيل فى قول النبى صلى الله عليه وسلم «لاترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» أى لا يتكفر بعضكم لبعض فى السلاح . السارب : الظاهر بماله من الماشية وكل متصرف فى حوائجه فهو سارب ، ومنه قول الله عز وجل (ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) وقال الشاعر :

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم ونحن حللنا قيده فهو سارب

قوله : فهو سارب أى ذاهب وقوله : أخلى : أى دخل فى الخلاء وهو الحشيش الرطب، كما يقال أظلم أى دخل فى الظلام وأصبح دخل فى الإصباح وأمسى دخل فى الامساء ، وقيل أخلى صار فى خلوة والتقدير على هذا نحن كهذا السارب الذى فى خلوة . ارتعى : رعى .

[المعنى] أن الغافل عن مصيره المحتوم ، المقصر فيما يتخذه عدة لراحته فى اليوم المعلوم ، كالذى وقع فى هوة سحيقة فهو يظل يتمطى حتى يخرج من فوهتها حاسر الذراعين مكشوف الساقين خائر القوى ، متمدد المفصلات ، ثم لا يكون سيره مع هذه الغفلة المنكرة إلا كسائر ليلا بلا مصباح فى شدة الظلماء ، يخبط خبط العشواء ، فقلما نجا من سقطة مريعة، وقد فات الوقت ولات حين مناص ، فشق عليه الخلاص ، ونحن بلا شك صائرون إلى الله عائدون إلى محل الجزاء على ما قدمنا من عمل صالح أو طالح ، فإن خالق الإنسان فى أحسن تقويم . وأبدع تصوير وإنشاء السموات وما فيهن من الكواكب النيرة والنجوم الزواهر ، وإيجاد الأرض وما عليها من أطواد

إذا أحسَّ نَبْأَةَ رِيعَ وَإنْ تَطَامَنَتْ عَنْهُ تَمَادَى وَلَهَا[1]
كَثُلَّةٍ رِيعَتْ لِلَيْثٍ فَانْزَوَتْ حَتَّى إذَا غَابَ اطْمَأَنَّتْ أَنْ مَضَى[2]

وأنهار وبحار زواخر، لم يخلقه الله الحكيم على أبدع مثال لهذا الأمد القصير، وما عيشنا على الأرض وحياتنا فيها لا نشعر إلا بالمفاجىء إلا كحالة السارب أعطيت له حرية الرعى فى حشيش أخضر فتطامن ورتع حتى إذا أحس بهيعة أو نبأة ريع لها وفزع منها .

(١) أحس : يعنى السارب ومعنى أحس علم . النبأة : الصوت الخفى . ريع : فزع . اطمأنت : هدأت وسكنت ، وكذلك تطامنت . تمادى : استمر ودام . ولها : غفل .

(٢) الثلة : بالفتح الجماعة من الغنم ، والثلة بالضم الجماعة من الناس، قال الله تعالى : (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) . ريعت : فزعت انزوت : انقبضت . الليث : الأسد وجمعه ليوث .

[المعنى] إن هدوء الغافل مهدد بما يريعه ويفزعه فجأة ، فالغافل من بنى الإنسان عن مرضه وبؤسه ، وشيخوخته وموته، يتفجع بمفاجأة النذير ، وطر وما غفل عنه كالحيوان السائب إذا أحس بالصوت الخفى لا يعرف مأتاه ، وقد تطامن فى مرعاه ، لا يملك أن يضرط فزعا، ويهيم على وجهه هربا ، حتى إذا غاب عنه الصوت الذى أفزعه عاد كما بدا ، فرعى ورتع ولها . ثم قال علامة الأزد : كثلة الخ أى أن الغافلين من بنى الإنسان الذين لا يتنبهون إلا بما يفاجىء من حيث لا يقدرون له نظائر ، ولا يعتبرون بما تكرر من العثور فى مهواة الحفائر ، كالغنم تدوب فرقا لمرأى الأسد ، فإذا غاب عن ناظرها اطمأنت ، ثم لم تقدر لجهلها أن يعود فلا تحتاط فيأخذها على غرة هوجاء ، ثولاء ، طعمة باردة .

نُهَالُ لِلْأَمْرِ الَّذِي يَرُوعُنَا وَنَرْتَعِي فِي غَفْلَةٍ إِذَا انْقَضَى (١)

إِنَّ الشَّقَاءَ بِالشَّقِيِّ مُولَعٌ لَا يَمْلِكُ الرَّدَّ لَهُ إِذَا أَتَى (٢)

وَاللَّوْمُ لِلْحُرِّ مُقِيمٌ رَادِعٌ وَالْعَبْدُ لَا يَرْدَعُهُ إِلَّا الْعَصَا (٣)

---

(١) نهال : نفزع والهول الفزع . الروع : أيضاً الفزع ، فيروعنا يفزعنا نرتعى : أى نرعى ومنه قوله تعالى : (نرتع ونلعب) . فى غفلة : أى ترك لما كنا فيه فى الفزع . انقضى : ذهب وفرغت مدته .

(٢) الشقاء : والشقوة واحد ومنه قوله عز وجل : (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا) ويقرأ شقاوتنا . المولع : المغرم بالشىء الملازم له لا يكاد يفارقه . لا يملك الرد له : أى لا يملك الدفع والصرف .

[المعنى] إن الإنسان تعود ألا يفزع إلا حين يداهمه المفزع ، ثم لا يلبث أن ينسى هذا الذى أقض مضجعه . وأتعب مشاعره ، فيسبح مرة وألف مرة فى ضاجير الغفلة كأن لم يكن أصيب بما يدمى القلوب ، ويسيل الأعين . ثم قال مايصلح مثلا : إن الشقاء بالشقى مولع الخ يعنى أن سوء الحظ ، ونحس الطالع ، يلازم صاحبه الغبى الجاهل ، والمستهتر الغافل الذى فقد الجد والنشاط ، ولم يتنبه بتتابع الحوادث ، ونزول الكوارث به أو بغيره ، حتى إذا أثر عليه وقعه لم يملك دفعه ولا رده ، حيث تعدت به همته عن مقارعة الزمان ، ومجالدة الحدثان ، وقد فاته حسن الاعتماد على الله الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا .

(٣) اللوم : بالفتح من الملامة وهو الذم والشتم . واللؤم بالضم الشح ومهانة النفس ودناءة الآباء . الحر : الخالص من كل شىء . مقيم : أى مصلح ما كان فيه . رادع : كاف يقال ردعته فارتدع أى كففته فانكف ، والرداع وجع فى الجسد قال الشاعر :

فيا عجبا وعاودنى رداعى وكان فراق ليلى كالخضاع

وَآفَةُ الْعَقْلِ الْهَوَى فَمَنْ عَلاَ عَلَى هَوَاهُ عَقْلُهُ فَقَدْ نَجَا(١)

والرداع أيضا الغضب قال الشاعر :

بركت على ماء الرداع كأنما بركت على قصب أجش مهضم .

وقيل الرداع فى هذا البيت اسم ماء بعينه يعرف به ذلك الموضع والعبد لا يردعه إلا العصا : أى لا يردعه عن السوء إلا العصا .

(١) وآفة العقل : مضرته ومفسدته . الهوى: الشهوة والإرادة. فمن علا : أى فمن ارتفع . على هواه : أى على شهوته وإرادته . فقد نجا: أى فقد سلم .

[المعنى] إن شريف الإحساس أبى النفس كريم المحتد إذا هفا لم تصلحه الإهانة ، وإنما يقيم معوجه نوع من اللوم يتناسب مع ماله من مكانة وكرامة ، وهو أحز فى نفسه من أن يجلد بالسياط ، أما ساقط الهمة دنيء النفس الذى لا يخجل مما يشين ، فهذا إنما يقيم معوجه ويصلح ثأبه ضرب من الإهانة يتفق وما فعل ، ولهذا كله جاء المثل

العبـــد يقرع بالعصا والحـــر تكفيه المقالة

ثم جمع علامة الأزد جماع الخلق فى قوله : وآفة العقل الهوى الخ يعنى أن العقول تمرض كالأجسام فكما أن السقم إذا حل بالجسم أضناه وذهب بنضرته وحسن روائه فكذلك العقل تضيع آثاره ، ويذهب صلاحه ، ويعدم نفعه إذا غلبته الشهوة ومال عنه صاحبه إلى ما تفعله البهائم ، لا يقدر عرضا ، ولا يحترم ملكا ، ولا يتبع نظاما ، ولا يحذر عقابا ، ولا يعتمد حسابا ، ومن أظلم ممن اتبع هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ؟!!! ذلك هو السر فى خسران الشعوب الشرقية ، وتأخر الأمم التى تعد نفسها إسلامية !!! ثم قال : فمن علا الخ يعنى أن من غلب سلطان العقل على سلطان الشهوة فقد نجا من درك الانحطاط الخلقى

كَمْ مِنْ أَخٍ مَسْخُوطَةٍ أَخْلَاقُهُ أَصْفَيْتُهُ الْوُدَّ لِخُلْقٍ مُرْتَضَى (١)
إِذَا بَلَوْتَ السَّيْفَ مَحْمُودًا فَلَا تَذْمُمْهُ يَوْمًا أَنْ تَرَاهُ قَدْ نَبَا (٢)

والاقتصادى معا ، وتقدم تقدما مطردا محسا ، يبارى الشمس فى وقت الظهيرة ، وما العالم الغربى المتقدم لأنه أسير عقله عنا ببعيد .

(١) قوله مسخوطة : من السخط وهو ضد الرضى فمعنى مسخوطة غير مرضية . أخلاقه : طبائعه : أصفيته الود : أى أخلصت له الود . لخلق مرتضى : أى لخلة واحدة مرضية منه . المرتضى : المستحسن .

(٢) بلوت: اختبرت قال الله عز وجل: (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) وقوله أن تراه قد نبا : أن فى موضع نصب لأنه مفعول به ، وقيل هو مفعول من أجله والتقدير فلا تذمه يوما من أجل أن تراه قد نبا ، أى من أجل رؤيته نابيا ، ونبا ارتفع عن المضروب ولم يقطع فيه شيئاً .

[المعنى] كثير من الإخوان أخلصت لهم ودى ، والنت لهم جانبى ، لما قدرته فيهم من بعض مكارم خلال حسنة ، وأخلاق مرضية ، مع ما لهم من مثالب أخرى ونقائص يجب التغاضى عنها متمثلا بقول الحكيم :

من الذى ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

إذا أنت عاتبت الصديق على الأذى تعبت ولم تلق الذى لا تعاتبه

ثم أكد هذا المعنى بقوله : إذا بلوت السيف الخ يعنى إذا ثبت لك بالاختبار جودة السيف وأنه من جوهر صاف حاد صارم ، فلا تعبه يوما إذا صوبته للقطع فنبا وطاش عن إصابة الغرض ، أو وصل ولم يقطع . فإن هذا لا يعيبه ، فربما كان عدم تأثيره لقوة المضروب ، وكذلك صديقك إذا كلفته

وَالطَّرْفُ يَحْتَازُ الْمَدَى وَرُبَّمَا ... عَنْ لِمَعْدَاهُ عِثَارُ فَكَبَا[1]

مَنْ لَكَ بِالْمُهَذَّبِ النَّدْبِ الَّذِي ... لَا يَجِدُ الْعَيْبُ إِلَيْهِ مُخْتَطَى[2]

إِذَا تَصَفَّحْتَ أُمُورَ النَّاسِ لَمْ ... تُلْفِ أَمْرًا حَازَ الْكَمَالَ فَاكْتَفَى[3]

بعمل لك - وهو لك مخلص - فلم ينجز مطلوبك فالتمس له العذر ، فقد عمل المستطاع :

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده ... وليس عليه أن تتم المطالب

(١) الطرف: الكريم من الخيل . يحتاز: أى يجوز . المدى : الغاية . عن : عرض . لمعداه : أى لعدوه ، وعدوه جريه ، عثار: مصدر عثر يعثر عثاراً إذا كبا . كبا : سقط لوجهه .

(٢) المهذب : العاقل الظريف ، وقيل المهذب المخلص . الندب : الرجل الخفيف فى الحاجة ، وقيل الندب الذى ينتدب للمكارم ، وقيل الندب المندوب لكل حاجة حسن تصرفه فيها ، وقيل الندب الذى قد عركه الدهر فحسن أخلاقه . مختطى : أى يمشى وهو من خطا يخطو إذا مشى .

[المعنى] إن الجواد الكريم يكبو ، والسيف الصارم الصقيل ينبو ، وليس يعيب كلا منهما أن يقال كبا الجواد فى بعض عدوه ، أو نبا السيف فى بعض أحيان قطعه ، مادام هذا الطرف يحتاز الغاية ، وذاك السيف يأتى على النهاية ،ومثلهما الإنسان ، ثم قال : من لك بالمهذب الخ يعني أى شخص من بنى الإنسان لا يجد العيب إليه سبيلا سوى الأنبياء المعصومين صلوات الله عليهم ؟ ! يريد لا يمكن أن تعثر على المبرإ من كل عيب عداهم .

(٣) إذا تصفحت أى نظرت . التصفح : النظر فى خلال الشىء . لم تلف: لم تجد . حاز : حوى الكمال : التمام يقال أكملت الشىء إذا أتممته وقوله : فاكتفى : أى اجتزأ به تقول كفانى الشىء يكفينى أى أجزأنى .

عَوِّلْ عَلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ إِنَّهُ أَمْنَعُ مَالاَذَ بِهِ أُولُو الْحِجَا(١)
وَعَطِّفِ النَّفْسَ عَلَى سُبْلِ الْأَسَا إِذَا اسْتَفَزَّ الْقَلْبَ تَبْرِيحُ الْجَوَى(٢)
وَالدَّهْرُ يَكْبُو بِالْفَتَى وَتَارَةً يُنْهِضُهُ مِنْ عَثْرَةٍ إِذَا كَبَا(٣)

---

(١) عول على الصبر : أى ارجع إليه واعتمد عليه . إنه أمنع : أى أحمى وأقوى . لاذ : لجا وركن واستتر . الحجا : العقل، فأولو الحجا أولو العقول .

(٢) وعطف النفس : ردها . سبل : طرق واحدها سبيل . الأسا : التصبر . إذا استفز : استخف . التبريح . الشدة وجمعها تباريح . الجوى : مقصور مفتوح الجيم فساد الجوف ، يكتب بالياء لأنه يقال جوى يجوى جوى، ويروى تبريح الأسا بفتح الهمزة الحزن .

(٣) والدهر يكبو : أى يعثر يقال كبا يكبو بمعنى عثر يعثر . وتارة : أى مرة وحينا . ينهضه : يقيمه . إذا كبا : سقط وعثر ، والمصدر كبوة واسم الفاعل كاب .

[المعنى] إذا تتبعت أحوال الناس لم تجد من رضى بحالته واكتفى بما وصلت إليه يده وإن كان قد حاز الغاية بل تلفيه اعتبرها بداية لما ليس له لدى أطماعه نهاية ، فاعتمد الصبر الجميل ، والشكر الجزيل والرضا بالقليل ، بله الكثير ، فإن ذلك أجمل بالعاقل ، وأقوى ما تذرع به كامل ، أما أنك تسير وراء طلباتك ، فلا انقضاء لحاجاتك ، وقد انفتح باب المتاعب على مصراعيه ، وفى هذا يقول المخضرم :

وللمرء كم تنقضى حاجة وتبـــقى له حاجة مابقى
تموت مع المرء آماله وحاجة من عاش لا تنقضى
أشاب الصغير وأفنى الكبـــير كر الغداة ومر العشى

وما أجمل أن تعطف النفس وتعودها على سلوك سبل التصبر ، وترغمها

لاَتَعْجَبَنْ مِنْ هَالِكٍ كَيْفَ هَوَى ... بَلْ فَاعْجَبَنْ مِنْ سَالِمٍ كَيْفَ نَجَا(١)

إِنَّ نُجُومَ الْمَجْدِ أَمْسَتْ أُفَّلاً ... وَظِلُّهُ الْقَالِصُ أَضْحَى قَدْ أَزَى(٢)

إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أُنَاسٍ بِهِمُ ... إِلَى سَبِيلِ الْمَكْرُمَاتِ يُقْتَدَى(٣).

على تحمل بعض غضاضة الحياة إذا ضقت ذرعا بأمر ، واستفز القلب ما ألهبه من جوى ، فإن التأسى علاجه ، وبه يكون شفاؤه ، ولا يأس مع الحياة ، كما لا حياة مع اليأس ، فإن الدهر يسقط بالفتى تارة إلى الحضيض ، وتارة يسعده ويصعده إلى ذروة الكمال ، فلا تدوم العثرة ، ولا تبقى الكبوة .

(١) هوى : سقط يقال منه هوى يهوى هوياً . نجا : خلص .

(٢) المجد : الشرف . الأفل : الغيب ، والواحد آفل يقال أفل أفولا إذا غاب قال الله عز وجل : (فلما أفل قال لاأحب الآفلين) القالص : المرتفع وفرس قالص طويل القوائم . أزى : قصر وتقبض .

(٣) يقتدى : يتبع فعلهم .

[المعنى] ليس بعجيب أن ترى من خلق للفناء ، واستحال عليه الخلود والبقاء يفنى ويهلك ، أو يهوى فى هوة نصب أو مرض مؤلم يقض المضاجع ، إنما العجيب أن ترى سليما من هذا أو ذاك ، فإنما خلقت الدنيا وأهلها للزوال ومقدمانه ، وحدثان الزمان وعادياته ، فليس يسلم نوعا ما إلا من اعتدل فى سيرته وسيره ، وقل من المغامرات فى سره وجهره ، وقد تدانت وتقاصرت مراتب العلا والمجد والشرف ، فأفلت نجومها ، وتحجبت عن الأعين أضواؤها ، وزال ظلها إلا من أناس هم للمكرمات كمطر السماء ، ونجوم الاهتداء ، محل ثنائى ومدح جميع الخلق معى .

إِذَا الْأَحَادِيثُ انْتَضَتْ أَنْبَاءَهُمْ كَانَتْ كَنَشْرِ الرَّوْضِ غَادَاهُ السَّدَى[1]

لَا يَسْمَعُ السَّامِعُ فِي مَجْلِسِهِمْ هُجْرًا إِذَا جَالَسَهُمْ وَلَا خَنَا[2]

---

(١) قوله : الأحاديث انتضت : أى أظهرت وهو من نضا الشئ ينضو إذا ظهر ، ويروى اقتضت بالقاف أى طلبت الأحاديث أخبارهم . الأنباء : الأخبار واحدها نبأ . النشر : الرائحة الطيبة . الروض : الموضع الذى يكون فيه ضروب من النبات فيكون فيه أنواع النور ، وهو جمع روضة فان كان فيه شجر فهو حديقة . غاداه : باكره ، وهو من الغدو يقال غاداه يغاديه مغاداة إذا صبحه بالغدو . السدى : الندى فى هذا الموضع وهو المطر ، وقيل السدى ما نزل فى أول الليل والندى آخر الليل ، وقال ابن الأنبارى : السدى والستى والندى فى معنى واحد يقال أرض سدية وستية وندية ، قال الفراء وكلهن يكتبن بالألف والياء ، قال الأصمعى يقال سديت الأرض إذا نديت ، من السماء كان الندى أو من الأرض . قال ابن حبيب الندى ما كان من السماء والسدى ما كان من الأرض .

(٢) لا يسمع السامع فى مجلسهم هجراً . الهجر بضم الهاء : القبيح من القول وكذلك الخنا ، وربما كان الخنا فى الفعل يقال قد أخنى الرجل فى منطقه وفعله يخنى .

[المعنى] إذا أظهرت الأحاديث أخبارهم كانت ذكراهم الطيبة ، ومآثرهم الحسنة ، كنشر أزهار الرياض العطرة المترعرع نبتها بين ظل الندى ، وتضوع ريا المسك الذكى ، وهم أناس يهاب مجلسهم عن أن يدنس بكلمة تخرج عن حد اللياقة ، أو تنبو عن شريف الأدب ، أو فعل يعيب ويشين ، ويقبح ولا يزين .

مَا أَنْعَمَ الْعِيشَةَ لَوْ أَنَّ الْفَتَى ... يَقْبَلُ مِنْهُ الْمَوْتُ أَسْنَاءَ الرُّشَا[1]

أَوْ لَوْ تَحَلَّى بِالشَّبَابِ عُمْرُهُ ... لَمْ يَسْتَلِبْهُ الشَّيْبُ هَاتِيكَ الْحُلَى[2]

هَيْهَاتَ مَهْمَا يُسْتَعَرْ مُسْتَرْجَعٌ ... وَفِي خُطُوبِ الدَّهْرِ لِلنَّاسِ أُسَى[3]

---

(١) قوله : ما أنعم العيشة : أى ما أطيبها والعيشة الحياة . أسناء الرشا : أرفعها وأعلاها وواحد الأسناء سنى بالتشديد وأصله الهمز لأنه من السناء الذى هو الرفعة والشرف ، لكن من شدد أبدل الهمزة ياء من أجل الياء التى قبلها وأدغم الياء الأولى فى الثانية على الأصل المستعمل فى الهمزة المتحركة التى قبلها ياء زائدة أو واو زائدة كسنىء وضوء ، فالاسناء بالمد جمع سنى مثاله أيتام ويتيم ، وهذا المثال من الجمع لفعيل إنما يكون قليلا فى الصفات لا فى الأسماء ، كما أنه قليل إذا أتى جمعا لفاعل نحو صاحب وأصحاب وشاهد وأشهاد ، والرشا جمع رشوة وهى العطية التى يحابى بها الإنسان أى يخص ، والمراشاة المحاباة وقيل رشا الهدايا لمن يخاف منهم مثل الحكام ونحوهم .

(٢) تحلى بالشباب : لبسه وتزيا به . لم يستلبه : لم يجرده . هاتيك : بمعنى تلك . الحلى : جمع حلية .

[المعنى] ما ألذ الحياة مع العيشة الهنيئة لو قبل الموت الفداء الغالى فلا يفنى الحى وتنزع روحه انتزاعا قسريا !!! بل ما أطيبها نسبياً لو تزين وتحلى عمر الفتى بشبابه الغض ثم لم يسلبه الشيب هذه النضرة وهاتيك الحلى ؟! ومقصود علامة الأزد : ما قيمة حياة آخرها فناء وموت وهلاك وشباب غض نضر ، وفتوة نادرة آخرهما شيب ووهن وهرم ؟! نعم لا قيمة لملك يزول ، وهناءة لا تبقى .

(٣) هيهات : بمعنى ما أبعد قال الله عز وجل حكاية عن الكافرين : (هيهات هيهات لما توعدون) . مهما يستعر : أى ما يستعار لابد لغيره أن يأخذه . مسترجع : مردود . خطوب الدهر : أموره . الأسى : جمع أسوة وهى ما يتاسى به الإنسان مما ينزل بغيره أى يقتدى به ويتعزى به فيتصبر .

وَفِتْيَةٍ سَامَرَهُمْ طَيْفُ الْكَرَى فَسَامَرُوا النَّوْمَ وَهُمْ غِيدُ الطُّلَى (١)

---

(١) فتية : جمع فتى . سامرهم : حادثهم ليلا ، والسمر الحديث بالليل يقال من ذلك سمر يسمر فهو سامر ، ولا يقال سمر بالنهار ، وقولهم : هذه كتب السمر أى كتب الأحاديث التى يتحدث بها ليلا ، وقيل معنى كتب السمر أى كتب الدهر ، والعرب تقول لا أفعل ذلك ماسامرا بنا سمير أى ما اختلف الليل والنهار ، والسمار المحدثون واحدهم سامر ، والسامرى منسوب إلى سامرة وهى بلدة . الطيف : ما يراه الإنسان فى المنام من خيال من يحبه الكرى : النوم . الغيد : جمع أغيد وهو الناعم ، وقيل المائل العنق ، وقيل المائل المتثنى نعمة . الطلى : الأعناق .

[المعنى] بعدت كل البعد لذائذ الحياة ودوام نعيم الشباب ، وما الحياة والشباب والفتوة إلا نعم مستعارة إلى أجل ، وودائع مرهونة بأوقاتها ، ولا بد يوما أن ترد الودائع ، كما يقول الحكيم العربى :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوما أن ترد الودائع

وقال غيره يرثى الأندلس :

لكل شىء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

وفى حدوث خطوب الدهر ونكباته التى لا تزال تتابع فتصيب الهدف ولا تخطىء أعظم أسوة ، يتصبر بها من لفح بحرها بمن أحرقه لهبها ، وشواه لظاها ، فيسهل عليه وقعها ، ويخف على متنه عبؤها ، والصبر أجمل ما يكون من الفتى . وقول العلامة :

وفتية أى ورب فتية زارهم طيف خيال من يحبون فى نومهم فسامروا النوم بحديثهم العذب الشهى وهم مائلو الأعناق الناعمة الحسنة الرشيقة يحيونه بميلها حسبما يهوى منهم ويحب .

وَاللَّيْلُ مُلْقٍ بِالْمَوَامِي بَرْكَهُ وَالْعِيسُ يَنْبُثْنَ أَفَاحِيصَ الْقَطَا[1]

بِحَيْثُ لَا تُهْدَى لِسَمْعٍ نَبْأَةٌ إِلَّا نَئِيمُ الْبُومِ أَوْ صَوْتُ الصَّدَى[2]

---

(١) الموامى : جمع موماة وهى القفر . البرك : الصدر . ينبثن : يخرجن النبث والنبيثة التراب الذى يخرج من البئر والنهر ، والجمع النبائث . العيس : البيض من الإبل الواحد أعيس والأنثى عيساء . أفاحيص القطا : أوكارها واحدها أفحوص وقيل أفاحيص القطا : المواضع التى تفحصها بصدورها للبيض أى توسعها .

(٢) النبأة : الصوت الخفى . نئيم البوم : صوته ، والبوم الهام . الصدى : ذكر الهام .

[المعنى] والحال أن الليل ألقى صدره على البطاح والقفار أى أسدل ظلامه ، والإبل البيض سائرة فيها تخرج بأخفافها القطا من أوكارها عند إحساسها بضغط قوائمها المحملة بالعب الثقيل ، وهو وقت يحلو فيه الحداء لتجد الإبل فى مسيرها ويلذ السمر لينسى الرحل المسافرون وعورة الطريق ومشقة السفر ، وفى هدوء الصحراء أثناء السرى لا يصل إلى السمع إلا نئيم البوم وهو الحيوان الذى يشبه وجهه وجه الانسان ولا يبصر نهارا وإنما يطلب معاشه ليلا ، والعرب فى جاهليتها تتشاءم بصوته حيث لا يصوت إلا فى الأمكنة الخربة ولا يأوى فى الغالب إلا إليها ، وسرت هذه العقيدة عند عامة المصريين فى القرى حتى إذا أوت إلى سطح دار جعلوا جعلا لمن يصيدها أو يقتلها تخلصا من تصويتها عليه المؤذن بالخراب - أو صوت الصدى وهو رجع الصوت عند النداء أو الغناء فى الأمكنة الواسعة الأرجاء أو المسورة أو ذكر البوم كما نقل الشارح عليه الرحمة والرضوان .

شَايَعْتُهُمْ عَلَى السُّرَى حَتَّى إِذَا ... مَالَتْ أُدَاةُ الرَّحْلِ بِالْجَبْسِ الدَّوَى (١)

قُلْتُ لَهُمْ إِنَّ الْهُوَيْنَا غِبُّهَا ... وَهْنٌ فَجِدُّوا تَحْمَدُوا غِبَّ السُّرَى (٢)

وَمُوحِشِ الْأَقْطَارِ طَامٍ مَاؤُهُ ... مُدَعْثَرِ الْأَعْضَادِ مَهْزُومِ الْجَبَا (٣)

كَأَنَّمَا الرِّيشُ عَلَى أَرْجَائِهِ ... زُرْقُ نِصَالٍ أُرْهِفَتْ لِتُمْتَهَى (٤)

---

(١) شايعتهم : تابعتهم على رأيهم فى سير الليل . السرى : سير الليل . أداة الرحل : حوائج الرحل وهو عيدانه وقطع الأكسية والبرذعة . الجبس: الرجل الثقيل . الدوى : الأحمق يريد بذلك أنه كان نائما فمالت به أداة الرحل .

(٢) الهوينا : الرفق فى السير وقيل مشية فيها فتور . غب السرى : عاقبته ، والوهن : الضعف . فجدوا : أى فاجتهدوا من قولهم جد يجد إذا اجتهد .

[المعنى] وقد وافقتهم على المسير ليلا لأنه فى الصحراء زمن الهجير وقت جد ونشاط ، حتى إذا ثقل النوم على رأس الرجل الضخم البدين ومال الرحل به وضعف المسير ناديت فيهم قائلا : إن السير البطيء والمشى الهوينا يحدث ضعفا للراكب والمركوب فجدوا فى المسير عنقا فسيحا ، فتحمد عاقبة مسرانا ونستريح ، ومن جد وجد ، والعمل سبيل الراحة .

(٣) قوله : وموحش الأقطار : يعنى بئراً أو حوضاً ، والموحش ضد المؤنس، لأن الوحشة ضد الأنس فتفسير موحش: بعيد العهد بالأنس. الأقطار: النواحى واحدها قطر. الطامى المرتفع. مدعثر : مهدوم. الأعضاد : ما حواليه من صفائح الحجارة التى تعضده أى تشده وتقويه واحدها عضد . الجبا : بفتح الجيم ماحول البئر والحوض ، والجبا أيضا الحوض الذى يجبى فيه الماء .

(٤) على أرجائه : أى نواحيه وواحد الأرجاء رجى مقصور . زرق نصال : أى بيض نصال فالزرق البيض ، والنصال جمع نصل وهى السهام ، وواحد السهام سهم . أرهفت : أى رققت . تمتهى : تسق بالماء تقول امتهى

وَرَدْتُهُ وَالذِّئْبُ يَعْوِى حَوْلَهُ مُسْتَكَّ سُمِّ السَّمْعِ مِنْ طُولِ الطَّوَى (١)

وَمُنْتِجٍ أُمُّ أَبِيهِ أُمَّهُ لَمْ يَتَخَوَّنْ جِسْمَهُ مَسُّ الضَّوَى (٢)

الحداد السكين أى سقاه بالماء ، وقيل معنى أرهفت ها هنا استلت عن كناتها أى خرجت عن كناتها ، وتمتهى أى تحد ، وهذا موافق لقول امرىء القيس :

رأسه من ريش ناهضة ثم أمتها على حجره

[المعنى] وكم من بئر موحش النواحى ، مخوف الأرجاء ، مرتفع ماؤه ، مبعثر ما حوله من صفائح الحجارة ، مبعد حوضه الذى يجبى فيه ما يخرجه الماتح من ماء وكأنما ريش الطير المبعثرة على نواحيه وأرجائه نصال زرق أخرجت من كناتها واستلت لتحد أشفارها وردته ليلا ونهلت منه بلا خوف يدرك قلبى أو وجل يقعدنى .

(١) قوله : وردته : يعنى وردت هذا الماء فالهاء عائدة على الماء فى قوله طام ماؤه ومعنى . يعوى : يصيح من الجوع . مستك : ضيق سم السمع والاستكاك الصمم ، والسم الثقب ، وسم كل شىء ثقبه قال الله عز وجل : (حتى يلج الجمل فى سم الخياط) أى فى ثقب الخياط الطوى : الجوع والطوى أيضاً خمص البطن وهو ضموره .

(٢) قوله : ومنتج : فيه قولان أحدهما أن يكون مفتعلا من النجوة وهو المكان المرتفع فيكون الأصل فيه منتجوا فوقعت الواو فى موضع حركة وقبلها مكسور فسكنت وقلبت لكسرة ما قبلها فصارت ياء ساكنة دخل عليها التنوين فسقطت لالتقاء الساكنين وهذا الوجه الصحيح ، والثانى وهو الوجه الضعيف أن يكون منتج مفعلا من النتاج فيكون غلطاً فى اللغة لأنه إنما يقال نتجت الناقة وتنتجها أهلها فمحال أن يأتى من الثلاثى اسم المفعول على مفعل ، وإنما يكون على مفعول كما يقال ضرب فهو مضروب ، وإنما يأتى على مفعل من الرباعى كقولك أكرمته فهو مكرم غير أن أبا إسحاق الزجاج

أَفْرَشْتُهُ بِنْتَ أُخِيهِ فَانْثَنَتْ عَنْ وَلَدٍ يُورَى بِهِ وَيُشْتَوَى[1]

حكى أنه يقال نتجت الناقة وأنتجت بمعنى واحد فهو على هذا جائز ، وإنما ضعفناه بما حدثنا به أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن قال حدثنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النحاس قال سمعت على بن سليمان يقول : نتجت الناقة إذا ظهرتناجها ولا يعرف لها فعل غير هذا ، ومنتج على القول الأول اسم فاعل وعلى القول الثانى اسم مفعول ومعنى البيت على هذا : رب غصن مولود وهو على الاستعارة ثم قال : أم أبيه أمه : يحتمل هذا وجهين يجوز أن يريد بأم أبيه التى هى أمه الأرض فكأنه وصف غصناً نبت من غصن قطع من شجرة فالأرض أم الشجرة وأم الغصن الذى نبت منه الغصن الثانى الذى هو أبو الغصن الأول ،ويحتمل أن يريد غصناً قطع من فرع من شجرة فتلك الشجرة أم الفرع ، والفرع جعله للغصن بمنزلة الأب على الاستعارة والشجرة أم الفرع وأم الغصن لأنه منها فصارت أما لأبيه وأما له ، وقوله لم يتخون : أى لم يتعاهد ، يقال فلان يتخاونه الخبل يتعاهده والتخون أيضاً التنقص ، ويروى لم يتخور جسمه بالراء وهو من الخور ، والخور الضعف ، يقال خار الرجل يخور خوراً إذا ضعف وهو بالخاء المعجمة واسم الفاعل خائر وخوار يريد أن الغصن الذى ذكره لم يتعاهده الضعف والرقة . الضوى: الهزال ، ومنه غلام ضاو وجارية ضاوية .

(١) قوله : يورى به : أى يستضاء به ، وذكر الضمير فى به لأنه راجع على الولد والولد مذكر . ويشتوى : أى يشتوى به يقال شويت اللحم واشتويته .

[المعنى] وردت هذا البئر الموحش الفاقد كل مؤنس وقد عوت الذئاب حوله من كل جانب بأصوات منكرة مريعة وهى صماء من طول طواها وفرط جوعها لخلو المكان مما تجد به غذاءها ، والذئاب إذا أفرط جوعها

وَمَرْقَبٍ مُخْلَوْلِقٍ أَرْجَاؤُهُ مُسْتَصْعَبِ الْمَسْلَكِ وَعْرِ الْمُرْتَقَى(١)

بكت وعوت ، وتجمعت حول بعضها . ثم تنساب جيشا عرمرما كسيل الوادى انحط من قلل الجبال لاتتردد فى الهجوم على ماتراه من أى حيوان حتى إذا لم تجد من تفترسه أكل بعضها بعضا :

كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وكنى بذلك عن عظيم جرأته ، وثبات قلبه وفرط شجاعته حتى يرد الماء المنوط بالضوارى بلا فزع أو تردد . ثم قال : ومنتج الخ أى وكم منتج أى فرع شجرة مرتفع صعب المرتقى ضخم غليظ الساق لم يمسه الهزال فيضمر قطعته من أم شجرته ، وقد مزقته إربا إربا ، ثم أفرشته أى جعلت فراشه فى حفرة الشواء بنت أخيه أى الأغصن الرقيقة الرفيقة فبانت بعد إيقاد النار عن ولد يورى به أى يستضاء بلهبه المرتفع المشتعل فيهما ويهتدى به ويشتوى أى يشوى على جمره لحم الذبائح للرفقة والوافدين على الشواء الطالبين الرفد . ومعنى أم أبيه أمه : أنه فرع غصن أكبر منه أصلهما شجرة واحدة فهى أمهما . ومعنى بنت أخيه : رقيقات الغصون التى تجعل شعلة للنار تحت الأغصن الكبيرة الغليظة فكل فرع رقيق ابن للغصن الكبير المتصل به . ومعنى فانثنت عن ولد : عن لهب تولد من شعلتها ، وفيه من الاستعارات البديعة ، والكنايات الطريفة ما فيه . وأرى الحل على هذا المعنى قريبا إلى الواقع .

(١) المرقب : الموضع العالى الذى ينظر منه إلى بعد . المخلولق : الأملس أرجاؤه : نواحيه . المستصعب : الصعب . المسلك : الطريق وجمعه مسالك ويروى مستصعب الأقذاف ، والأقذاف النواحى واحدها قذف . وعر : صعب . المرتقى : المصعد ، ويروى وعر المرتبى أى الموضع العالى الذى يرتبى اليه أى يرتفع فيه ويصعد عليه وهو من ربا يربو إذا ارتفع ، والربوة الأرض المرتفعة ، وفيها أربع لغات ربوة وربوة وربوة ورباوة والجمع الربى وقوله

وَالشَّخْصُ فِي الْآلِ يُرَى لِنَاظِرٍ تَرْمُقُهُ حِيناً وَحِيناً لا يُرَى[1]
أَوْفَيْتُ وَالشَّمْسُ تَمُجُّ رِيقَهَا وَالظِّلُّ مِنْ تَحْتِ الْحِذَاءِ مُحْتَذَى[2]

عز وجل : (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآوينا هما إلى ربوة ذات قرار ومعين) قال قوم من العلماء إنها دمشق ، وقال قوم إنها بيت المقدس ، وقال قوم هى فلسطين ، وقال قوم هى مصر .

(١) الشخص : هو الشيء المرتفع مأخوذ من شخص إذا ارتفع . الآل : السراب . ترمقه : أى تنظره . حيناً : وقتاً .

(٢) أوفيت : أى أتيت ووصلت . الشمس تمج ريقها : أى تلقيه وريقها لعابها ، ولعاب الشمس إنما يكون فى وقت الظهيرة وهو وقت أشد مايكون فيه الحر فيتبين فى ذلك الوقت فى الشمس مثل نسج العنكبوت خفى يقال له لعاب الشمس وريق الشمس ولا يكون لشيء فى ذلك الوقت ظل إذا كانت الشمس فى وسط السماء ومعنى قوله : والظل من تحت الحذاء محتذى ، الحذاء : النعل ومحتذى ملصق يقول فالظل تحت النعل كأنه قد حذى معها يريد أن ظل الانسان قد صار نعلا لحذاء النعل أى بمقابلته من تحت محاذيا له .

[المعنى] وكم من مكان صعب المرتقى ، وعر المسلك ، أملس النواحى ، ومنقطع النواحى كالثوب الخلق ، وهو نجوة فى سفح جبل ، أوفيته وصعدت عليه لأرقب الطريق والطراق ، والحال أن الشخص فى السراب المضطرب وقتذاك قد يرى وقتا ووقتا لا يرى ، والشمس فى وقت الظهيرة والهاجرة تشوى الوجوه بلهبها ووهجها المتوقد تراها تمج ما يشبه نسج العنكبوت الدقيق الخفى فى وقت الهجير وحين الزوال ، وفى ذلك الحين ترى ظل الشخص أضحى ولا أثر له محاذيا للشراك كأنه للنعال المحتذى .

وَطارِقٍ يُؤْنِسُهُ الذِّئْبُ إِذَا تَضَوَّرَ الذِّئْبُ عِشَاءً وَانْضَوَى (١)

أَوَى إِلَى نَارِيَ وَهْيَ مَأْلَفُ يَدْعُو الْعُفَاةَ ضَوْءُهَا إِلَى الْقِرَى (٢)

---

(١) الطارق : الذى يجىء بالليل ولا يكون الطارق نهاراً . تضور : صاح من الجوع ، والتضور الصياح من الجوع . يقول إن هذا الطارق يؤنسه تضور الذئب وعواؤه ليأسه من سماع الأصوات فلما يئس من سماع أصوات بنى آدم أنس بصوت الذئب .

(٢) قوله : أوى إلى نارى : أى انضم إلى نارى تقول أويت إلى فلان بغير مد على وزن فعلت آوى اليه ممدود فى المستقبل على وزن أفعل ، فأما إذا كنت أنت الذى تؤويه أى تضمه فتقول آويته بالمد على وزن أفعلته أؤويه إيواء على وزن إفعالا قال الله عز وجل : (وفصيلته التى تؤويه) أى تضمه وقوله : مألف : المألف الموضع الذى يجمع فيه الأحباب كأنه يؤلفهم فلذلك سمى مألفا . العفاة : الفقراء واحدهم عاف مثل قاض وقضاة . القرى : الضيافة وقوله : يدعو العفاة : أى يندبهم ضوءها ، والكرام من العرب يوقدون النار ليستدل بها على أمكنتهم قال حاتم طيئ يخاطب غلاماً له :

أوقد فان الليل ليل قر والريح يا واقد ريح صر

عل يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فأنت حر

وهذا أجود ما روى فى هذا المعنى .

[المعنى] وكم من طارق فى صحراء مسيرى المقفرة إلا منى ومن صحبى ، يؤنسه عواء الذئب الصارخ من شدة الجوع المضنى لفقده من يأنس به من بنى الإنسان والحيوان المستأنس وهو سائر فى هذه البيداء المترامية الأطراف ، والفجاج الواسعة الخاوية المخيفة ، أوى وانعطف إلى نارى المتأججة المضيئة فى أعلى مكان فى هذا القفر ، يدعو ضوءها العفاة وطالبى الرفد إلى الكرم بالشواء وما إليه من حلوى ومرطبات بنفس سمحة ووجه هاش باش ، يجعلان العفاة يألفون وردها كلما تأججت وأضاءت .

لِلّٰهِ مَا طَيْفُ خَيَالٍ زَائِرٍ تَزِفُّهُ لِلْقَلْبِ أَحْلَامُ الرُّؤَى (١)
يَجُوبُ أَجْوَازَ الْفَلَا مُحْتَقِرًا هَوْلَ دُجَى اللَّيْلِ إِذَا اللَّيْلُ انْبَرَى (٢)
سَائِلْهُ إِنْ أَفْصَحَ عَنْ أَنْبَائِهِ أَنَّى تَسَدَّى اللَّيْلَ أَمْ أَنَّى اهْتَدَى (٣)

(١) قوله: لله ماطيف: اللام فى هذا بمعنى التعجب يقال: لله زيد ما أكمله فى جميع حالاته! وما زائدة. والتقدير لله طيف خيال: والطيف ما يراه الإنسان النائم فى صورة محبوبه، والخيال الشخص الذى يتخيل لك. تزفه: تحمله من قولك زففت العروس إلى زوجها أزفها إذا حملتها اليه. الأحلام: جمع حلم. الرؤى: جمع الرؤيا.

(٢) يجوب: أى يقطع من قول الله عز وجل: (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد). أجواز الفلا: أوساطها وهى جمع جوز. الفلا: جمع فلاة وهى القفر من الأرض. محتقراً: أى مستصغراً. الهول: الشدة وجمعه أهوال. دجى الليل: والدجى الظلمة وهى جمع دجية انبرى: اعترض ينبرى انبراء فهو منبر واسم المفعول منبرى اليه.

[المعنى] ما أعجب وألطف وأظرف طيف خيال المحبوب إذا زار تزفه أحلام الرؤى المنامية إلى القلب المشوق المتلهف لرؤياه محياه، وسماع أنبائه، والوقوف على أحواله. يجوب أى يقطع أوساط الفلاة المقفرة مستصغرا شدة مسرى الليل، ووحشة الطريق لفقد المؤنس، يحيينى وأحييه.

(٣) قوله: سائله: يعنى الخيال. عن أنبائه: أى عن أخباره وواحد الأنباء نبأ. إن أفصح: أى إن أبان يقال أفصح يفصح إفصاحاً فهو مفصح وقوله: أنى: أى كيف، ومنه قول الله عز وجل: (أنى لك هذا) أى من أين لك هذا. تسدى: أى امتد فى السير. وقيل تسدى الليل قطع الليل بالسير. يقال سديت الوادى إذا قطعته ويقال تسدى ركب، يقال تسديت الشىء أتسداه تسدياً إذا ركبته وعلوت عليه. ومنه قول امرىء القيس

فلما دنوت تسديتها فثوبا نسيت وثوباً أجر

أَوْ كَانَ يَدْرِى قَبْلَهَا مَا فَارِسٌ وَمَا مَوَامِيهَا الْقِفَارَ وَالْقُرَى(١)
وَسَائِلِى بِمُنْعِجِى عَنْ وَطَنٍ مَا ضَاقَ بِى جَنَابُهُ وَلاَ نَبَا(٢)

وكونه بمعنى قطع أحسن فى بيت ابن دريد . وكذلك أم أنى اهتدى : معناه من أين اهتدى لزيارتنا واهتدى استدل ، ومعنى اهتدى فى الدين استدل على طريق الحق والرشد .

(١) قوله : أو كان يدرى قبلها : يريد قبل هذه الزورة ثم أضمر وجاء بالمضمر لأن سياق الكلام يدل على الضمير وقوله : ما فارس : يريد ما أرض فارس فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه ، وهذا كثير فى القرآن ، وفى لسان العرب ، من ذلك قوله عز وجل : (واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها) أراد واسأل أهل القرية وأهل العير فحذف ، وكان أبو بكر رحمه الله قال هذه القصيدة بعد خروجه من البصرة وهو بأرض فارس مدح بها ابن ميكال وابنه . المواى : القفار واحدها موماة . القرى : المدن واحدها قرية :

[المعنى] سائله بعد التحية والبشرى بلقياه إن أبان فى إخباره وأفصح فى بيانه كيف قطع الليل المظلم فى هذه المومأة الموحشة ؟ أو كيف اهتدى إلى موضعنا مع وعورة المسلك وبعد الشقة ؟ ! ثم ما علم قبلها من الفوارس التى تقطع هذه القوائم ؟ ! وما قفارها والقرى التى تقع فى حواشيها وأطرافها ؟ ! والحمل على معنى علمه للفوارس خير من تقدير المضاف المحوج للنجوز .

(٢) قوله : سائلى : أضاف وهو يريد الانفصال وذلك أنه جعله نكرة لأن الواو بمعنى رب . أراد وسائل فأضاف ، ومما أضيف ومعناه الانفصال قول الله تبارك وتعالى : (كل نفس ذائقة الموت) وكذلك (هديا بالغ الكعبة) أى كل نفس ذائقة الموت ، وهدياً بالغا الكعبة وكذلك تقول مررت برجل ضارب زيد تريد ضارب زيداً فنعت به الرجل وجعلته نكرة . وإن كان

قُلْتُ الْقَضَاءُ مَالِكٌ أَمْرَ الْفَتَى مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي وَمِنْ حَيْثُ دَرَى
لَا تَسْأَلَنِّي وَاسْأَلِ الْمِقْدَارَ هَلْ يَعْصِمُ مِنْـــهُ وَزَرٌ وَمُزْدَرَى (١)

مضافاً إلى معرفة لأنك تنوى فيه الانفصال وقوله : بمزعجى : أى بمزيلى ومخرجى ، والباء فيه بمعنى عن كأنه قال وسائلى عن مزعجى ، والعرب تقول رب سائلى بزيد أى عن زيد . الوطن : المحل وجمعه أوطان . الجناب : بفتح الجيم الناحية . ولا نبا : أى ولا ضاق ، يقال نبا ينبو نبوة فهو ناب .

[المعنى] ورب سائل لى عن الذى أزعجنى وأخرجنى من وطن عزيز على لم تضق بى نواحيه ، ولانبت بى رحباته . فأقول إن خروجى منه لالقلى منى له ، ولا لجفاء أهله لى ، بل قضاء الله فى تنقل الفتى من مكان إلى مكان أمر لا شك فيه كقضائه فى الآجال والأرزاق شعر المرء بذلك أم لم يشعر ، أقر وآمن أم لم يقر ، وقد قال الله الكريم لنبيه المفضل صلى الله عليه وسلم : (قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وماسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) صدق الله ورسوله .

(١) قوله : لا تسألنى : يخاطب السائل الذى حكى عنه سؤاله عن انزعاجه عن وطنه . المقدار : القدر وهو ماقدر على الإنسان من خير وشر ثم قال . هل يعصم منه : أى يمنع منه يعنى من القدر ، ومنه قول الله عز وجل : (لا عاصم اليوم من أمر الله) أى لا مانع . الوزر : الملجأ . وجمعه أوزار وقوله : أو مذدرى : أى مكان مرتفع مانع وهو من الذروة ، والذروة أعلى الجبل . وقيل أومذرى أراد به أو جانبا عزيزاً من قولهم فلان فى ذرى فلان بفتح الذال أى فى جانبه . كأنه قال لا يعصمه ملجأ ولا جانب عزيز مانع ، ويروى بالدال غير المعجمة . والمدرى المدفع . وهو من درأت أى دفعت .

لاَ بُدَّ أَنْ يَلْقَى امْرُؤٌ مَا خَطَّه ذُو الْعَرْشِ مِمَّا هُوَ لاَقٍ وَوَحَى (١)

لاَ غَرْوَ أَنْ لَجَّ زَمَانٌ جَائِرٌ فَاعْتَرَقَ الْعَظْمَ الْمُمِخَّ وَانْتَقَى (٢)

فَقَدْ تَرَى الْقَاحِلَ مُخْضَرًّا وَقَدْ تَلْقَى أَخَا الْإِقْتَارِ يَوْمًا قَدْ نَمَا (٣)

---

(١) قوله : لا بد أن يلقى امرؤ ما خطه ذو العرش : يريد ما كتبه الله فى اللوح المحفوظ وقوله : ووحى : معطوف على خطه ، ومعنى وحى كتب يقال وحى يحى وحيا إذا كتب .

(٢) لا غرو : أى لا عجب . لج زمان : عرض زمان . فاعترق العظم : أى أزال عنه اللحم . الممخ : الذى فيه المخ . انتقى : استخرج منه النقى وهو المخ .

(٣) القاحل : اليابس . أخو الإقتار : المقل من المال . نما : زاد واستغنى .

[المعنى] لا تسألنى عن سبب خروجى منه على الرغم منى فإنى لا أعرف سببا ظاهرا غير القدر المحتم ، والقضاء المبرم ، فاسأل بدلى القدر هل يمنع شئ من نفاذه على أى مخلوق - ولو كان ملكا له وزر ونصراء ، وحصون شماء ؟ اولن تجد جوابا على سؤالك إلا سلبا ، حيث لا بد أن يلقى المرء ما قدر عليه وكتب له فى اللوح المحفوظ أزلا . ثم لا عجب أن يلح الزمان على ذى الفتوة فيرمى عليه بأعباء أحمال ثقال ينوء بحملها متنه ، ويعيى بها كاهله ، فيذيب شحمه ولحمه ، حتى يبين منه العظم الممخ ، وإنما يختار الزمان ، وينتقى لحمل أثقاله من شرف حسبه وسما قدره وقد يرفع أحط بنى الإنسان صيادين السمك ، وكم له من العجائب والغرائب ، فقد ترى القاحل من الأرض مخضرا ، واليابس نضرا وقتاما ، كما قد ترى المقل المعدم أثرى واغتنى ، وصار ذا أثاث ورياش وبناء ، فليس للدهر مقياس ، ولا لأحوال الناس المتغيرة أساس ، وإنما هو القدر ، ولله فى صنعه حكم بالغة .

يَا هُؤَلَيَّا هَلْ نَشَدْتُنَّ لَنَا نَاقِبَةَ الْبُرْقُعِ عَنْ عَيْنَيْ طَلَا[1]

مَا أَنْصَفَتْ أُمُّ الصَّبِيَّيْنِ الَّتِي أَصْبَتْ أَخَا الْحِلْمِ وَلَمَّا يُصْطَبَى[2]

إِسْتَحْيِ بِيضًا بَيْنَ أَفْوَادِكَ أَنْ يَقْتَادَكَ الْبِيضُ اقْتِيَادَ الْمُهْتَدَى[3]

---

(١) وقوله ياهؤليا تصغير هؤلاء. نشدتن : أى طلبتن ، وقيل نشدتن عرفتن من قولهم نشدت الضالة إذا عرفتها . ناقبة البرقع : أى مغطية البرقع والمتقنعة به ، ويروى رافعة البرقع أى التى إذا رفعت البرقع عن وجهها رفعته عن عينى طلا : ويروى أيضا ثاقبة البرقع بثاء مثلثة يريد المضيئة الوجه ومنه قوله عز وجل : (والنجم الثاقب) والطلا بفتح الطاء ولد البقرة الوحشية وجمعه أطلاء .

(٢) قوله : ما أنصفت أم الصبيين : هـذا لفظ تقوله العرب تمدح به المرأة الكاملة ، وقيل أم الصبيين . يعنى بالصبيين العينين سميا بذلك للشخص الذى يرى فيهما كالصبيين وهو الذى يسمى انسان العين وهذا قول حسن ، ويرى الصبيين بضم الصاد وهما الخرصان اللذان يكونان فى الأذنين وقوله : أصبت أخا الحلم : أى ردته إلى الصبا وهو اللهو . الحلم : العقل. لمـا يصطبى : أى لم يرد إلى الصبا ، فلما هنا بمعنى لم يرد قبل ذلك إلى الصبا .

[المعنى] يا هؤلاء الكواعب ، والفتيات الغيد الحسان هل طلبتن لنا رافعة البرقع فتسفر عن وجه كالقمر ، وعينين سوداوين نجلاوين ، كعينى ولد البقرة الوحشية فينعشنا حضورها ، ويبعث فينا ريا الحياة منظرها ، فيرجع للشيخ صباه ؟! ثم استدرك كأنه لا يرضى بالتشبب على الكبر فقال . ما أنصفت الخ يعنى لم تضع العدل فى نصابه ، والانصاف في مكانه ، تلك الفتاة الساحرة بعينيها ، حين ترجع بالشيخ إلى شأن الصبا ، فتشغل قلبه بالحسان ، واللهو فى غير الأوان ، وقد فات الزمان !!!

(٣) قوله : استحيي : فعل أمر هو من الحياء الذى هو ضد القحة وقوله

هَيْهَاتَ مَا أَسْفَعَ هَاتَا زَلَّةً أَطْرَبًا بَعْدَ الْمَشِيبِ وَالْجَلَا(١)

بيضا : أراد من بيض فلما أسقط من تعدى الفعل فنصب ، والبيض الأول هو الشيب ، والبيض الثانى النساء يخاطب نفسه ويعاتبها يقول استحي من شيبك أن تستميلك النساء فيردنك من طريق الحلم إلى التصابى وقوله : بين أفوادك : أفوادك جمع فود ، والفودان جانبا الرأس أى ناحيتاه من يمين وشمال . يقتادك : يقودك أى يسوقك . اقتياد : سوق : المهتدى : الأسير ويروى المفتدى أيضا بالفاء وهو الأسير ، ويروى المعتدى بالعين غير المعجمة ، يريد المعتدى عليه فيكتفى بعلم المخاطب من الصلة وهو قبيح ، والمعتدى عليه هو المظلوم الذى اعتدى عليه قال الله عز وجل : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)

(١) هيهات : كلمة تبعيد ، وهاتا للمؤنث بمنزلة هذا للمذكر ، ويروى ما أشنعها نازلة أى ما أشنع هذه النازلة نازلة . وأشنع : أقبح ، الزلة : الخطيئة والسقطة والنازلة المصيبة تنزل بالإنسان ، ثم قال : أطربا على المصدر كأنه قال أتطرب طربا بعد المشيب ! والطرب فى هذا الموضع الفرح والطرب خفة تصيب الرجل عند شدة السرور أو عند شدة الجزع الجلا : بفتح الجيم مقصورا انحسار الشعر عن مقدم الرأس .

[المعنى] ألا رجوع عن الحسان وقد شبت !! أى ينبغى أن يدرك الشيخ الحياء من شيب فودى رأسه من أن يكون مقتادا بخطامه كالبهائم تجره بزمامه النساء البيض ، كما يجر الحيوان أو الأسير فلا يملك الأوبة حين تجب التوبة ، هيهات أى بعد الرجوع بعد امتلاء القلب بحب مندامة الآنسات والطرب بمغازلة حسان الفتيات ، ثم ما أقبح تعلق المرء بالنساء ، وقد ابيض الشعر وصار الرأس أصلع !!! أطربا يجوز مع المشيب والصلع وهو نذير انتهاء الحياة ، ورسول الموت ، وإعلان الاستعداد إلى مقابلة الخالق بالعمل المرضى من الصالحات ، وأنواع العبادات !!! .

يَا رُبَّ لَيْلٍ جَمَعَتْ قِطْرَيْهِ لِى بِنْتُ ثَمَانِينَ عَرُوسًا تُجْتَلَى (١)
لَمْ يَمْلِكِ الْمَاءُ عَلَيْهَا أَمْرَهَا وَلَمْ يُدَنِّسْهَا الضِّرَامُ الْمُحْتَضَى (٢)
حِينًا هِيَ الدَّاءُ وَأَحْيَانًا بِهَا مِنْ دَائِهَا إِذَا يَهِيجُ يُشْتَفَى

---

(١) قوله : جمعت قطريه : أى جانبيه وهماهنا الطرفان أول الليل وآخره . بنت ثمانين : هنا الخمر وإنما سماها بنت ثمانين لأنه من شربها أوجبت عليه ثمانين جلدة . تجتلى : تجلى من جلوت للعروس وهو إظهارها .

(٢) قوله : لم يملك الماء عليها أمرها : يريد لم تمزج بالماء فتكسر حدتها وسورتها . ولم يدنسها . لم يغيرها . الضرام : الحطب الدقيق يوقد به الحطب الغليظ . المحتضى : العود الذى تحرك به النار وهو من قولهم حضأت النار إذا حركتها وأحضأتها إذا أشعلتها ومنه قول الشاعر :

ونار قد حضأت بعيد وهن بدار ما أريد بها مقاما

وقيل الضرام : النار المضرمة والمحتضى المحرك .

[المعنى] أتمنى ليلا يجمع لى أوله وآخره بنت الحان ، وأنابها نشوان ، تقدم لى كالعروس المجلوة لم يمزجها الساقى بالماء ، بل يملأها فى الكأس صرفا ، وهى فى دنها خالصة من الغصون الدقيقة التى تغير طعمها ، حينا تكون داء إذا مغصت بها الأمعاء ، وتهيجت الصفراء فترمى بشاربها السكير فى الحضيض ، وحينا يشتفى بها إذا أثرت الصفراء على الدورة الدموية فيشر بها لينسى الألم الناشىء من دائها ، وأراد ببنت الثمانين المعتقة كناية عن طول مقامها بدنها - وعلامة الأزد وإن اتهم بحبه للخمر فى صباه فلن يكون قوله هذا استحسانا لها وقد شاخ ، وإنما هو تغزل على جرى عادة العرب فيها ولا يمكن أن يجهل وهو العلامة أنها داء بلا شفاء . ونقص بلا جبر ، وعاثور الرجال ، وهوة الأبطال ، ومباءة الشر ، وأم الخبائث ، أعاذنا الله منها ومن أهلها وقد أجمع الأطباء على ضررها بالعقل والكبد والنسل ، بله الخلق .

قَدْ صَانَهَا الْخَمَّارُ لَمَّا اخْتَارَهَا ضَنًّا بِهَا عَلَى سِوَاهُ وَاخْتَبَى (١)

فَهْيَ تُرَى مِنْ طُولِ عَهْدٍ إِنْ بَدَتْ فِي كَأْسِهَا لِأَعْيُنِ النَّاسِ كَلَا (٢)

كَأَنَّ قَرْنَ الشَّمْسِ فِي ذُرُورِهَا بِفِعْلِهَا فِي الصَّحْنِ وَالْكَأْسِ اقْتَدَى (٣)

نَازَعْتُهَا أَرْوَعَ لَا تَسْطُو عَلَى نَدِيمِهِ شِرَّتُهُ إِذَا انْتَشَى (٤)

---

(١) قد صانها الخمار : أى حفظها . ضنا : أى بخلا . واختبى : وخبى أى ستر .

(٢) قوله : كلا : أى عمى يعنى أنه يعمى من نظر إليها فكيف من شربها ! [المعنى] احتفظ بها الخمار ، وحافظ عليها ، لما اصطفاها لنفسه ، وضن بها لنفاستها على غيره ، فهى ترى فى كأسها سوداء مظلمة من طول عهدها وتعتيقها كظلام عمى الأعين يريد كالسواد الغربيب ، والعرب فى جاهليتها كانت تحب المعتقة وتعتنى بها ، وتعتنى فى شرابها ، ولهذا بالغ فيها علامة الأزد على مجرى عادتهم — وليس المعنى أن من نظر إليها يعمى فكيف بمن شربها كما يقول الشارح العلامة عليه الرحمة ، ولصاحب المعلقة يتغزل فى المعتقة :

ألاهبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا

معتقة كأن الحص فيها إذا ما الحص خالطها سخينا

(٣) قرن الشمس : أى شعاعها . ذرورها : بالذال المعجمة طلوعها يقال ذرت الشمس إذا طلعت ، ومنه لا أكلمك ما ذر شارق ، أى ماطلع نجم الصحن : القدح الكبير الواسع . والكأس : القدح إذا كان فيه خمر ومعنى اقتدى : اتبع أثره .

(٤) نازعتها : أى ناولتها وأدرتها من قول الله عز وجل : (يتنازعون فيها كأساً) الأروع : الحسن المنظر الجميل . لا تسطو : لا تعدو مأخوذ من السطوة يقال سطا يسطو سطوة إذا عدا عليه . النديم : الصاحب . الشدة : الحدة . انتشى : سكر .

كَأَنَّ نَوْرَ الرَّوْضِ نَظْمُ لَفْظِهِ مُرْتَجِلاً أَوْ مُنْشِدًا أَوْ إِنْ شَدَا(١)

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ الْفَتَى قَدْ نِلْتُهُ وَالْمَرْءُ يَبْقَى بَعْدَهُ حُسْنُ الثَّنَا(٢)

[المعنى] كأن شعاع الشمس حين طلوعها مشرقة ليس دون قرصها سحاب فانتشر منه السنا يضيء الأفق وتبع فى هذا الانتشار أثرها فى الصحن الواسع والقدح الصغير وهى تسيل فيهما وتتماع ناولتها فى صحنها أو كأسها نديمى الجميل الظريف ، وهو لها ألوف متعود ، لا تسطو عليه شدته الخ أى لا تؤثر على عقله وحواسه حدة الخمر إذا سكر ، بل يملك مع الشراب قواه ، ويظل ينادم كالذى أتمناه .

(١) النور : الزهر . المرتجل : الذى يأتى بما يخطر على باله على البديهة بغير استعداد . أو منشداً : أى منشداً للشعر . أو إن شدا : أى أو إن تعلم شيئا من العلم ، وقيل أو إن شدا أو إن غنى ، وهو أجود وأليق بالمعنى لأن هذه الأحوال التى وصفها أحوال طرب لا أحوال طلب فلا معنى هنا لطلب العلم ، والشادى فى كلام العرب المغنى ، والشدو الغناء يقال شدا يشدو شدواً إذا غنى .

(٢) من كل ما نال الفتى قد نلته : أى من كل ماطلب الفتى فأدركه طلبته فأدركته من خير أو شر . الثنا : هنا مقصور يكتب بالألف لأنه من ثنا عليه كلاما حسنا أو قبيحا ينثوه ثنواً ،وهو بتقديم النون على الثاء إذا تكلم فى جانب المذكور بذلك الكلام ، فأما الثناء بتقديم الثاء على النون ممدودا فلا يكون إلا فى الخير خاصة ، قال الشاعر فى الثنا الذى يكون للخير والشر :

ولو عن ثنا غيره جاءنى وجرح اللسان كجرح اليد

وقال الآخر فى الثناء الذى يكون للخير خاصة :

هذا الثناء فإن تسمع به حسناً فلم أعرض - أبيت اللعن - بالصفد

فَإِنْ أَمُتْ فَقَدْ تَنَاهَتْ لَذَّتِي ... وَكُلُّ شَيْءٍ بَلَغَ الْحَدَّ انْتَهَى (١)

وَإِنْ أَعِشْ صَاحَبْتُ دَهْرِي عَالِمًا ... بِمَا انْطَوَى مِنْ صَرْفِهِ وَمَا انْتَشَى (٢)

حَاشَا لِمَا أَسْأَرَهُ فِيَّ الْحِجَا ... وَالْحِلْمُ أَنْ أَتْبَعَ رُوَّادَ الْخَنَا (٣)

[المعنى] كأن ألفاظ نديمي الحسن الجميل ناظما لنفسه على البديهة أو ناثرا ، منشدا لغيره أومغنيا ، زهر الرياض البهيج يضم مع حسن الرواء بداعة التنسيق ، ولطافة العبير ، ثم قال : ما فاتنى شيء من لذائذ دنياى ، بل كل مانالهالفتى الهمام المنزه قد نلته ، وإنما يبقى للمرء بعد فراقه بالمنأى أوالموت حسن الأحدوثة وطيب الخبر .

(١) تناهت لذتى : بلغت النهاية وهى الغاية . الحد : هو الشيء الذى لا يتجاوز .

(٢) وقوله : بما انطوى من صرفه وما انتشى : انطوى استتر وانتشى ظهر وهو بالشين المعجمة ، والمستقبل ننتشى ، وصرف الدهر تقلبه .

[المعنى] إن وافانى أجلى ، وعاجلتنى منيتى فلست بآسف على فوات لذة لم أنلها ، فقد نلت كل ما أتمنى منها ، وبلغت فيها الغاية ، وكل شيء بلغ الغاية القصوى ، والنهاية العليا انتهى نموه ، ووقف رقيه ، وإن امتدت حياتى ، وطال بعد تلك الغاية أجلى صاحبت دهرى وأنا بسائر أحواله خيرها وشرها ، ونفعها وضرها ، خبير وعليم ، فلن أضرس بعد هذه الخبرة وتلك التجارب بأنيابه ، ولن أوطأ بميسمه .

(٣) حاشا : كلمة تبرئة والتبرئة نفى الدنس عن ذات المخاطب ،قال الله عز وجل : (وقلن حاشا لله) . أسأره : أبقاه ومنه الحديث « إذا شربتم فأسئروا » أى ابقوا فى الإناء بقية ، والسؤر البقية . الحجا : العقل . الحلم : التغافل عن كل مكروه يقابل به ويواجه . الرواد : جمع رائد ، ورائد القوم رسولهم الذى يرتاد لهم موضع الكلا أى يطلبهالهم . والكلا العشب . الخنا : الفحش فى النطق

أَوْ أَنْ أُرَى لِنَكْبَةٍ مُخْتَضِعاً أَوْ لِابْتِهَاجٍ فَرِحًا وَمُزْدَهِى (١)

(١) أو أن أرى مختضعا : أى متذللا . النكبة : المصيبة الحادثة . الابتهاج : السرور . المزدهى : المستخف وقيل المعجب .

[المعنى] أبرىء نفسى - وأنا بمقدارها عليم وخبير ، وعلى شرفها وكرامتها حارس ورقيب من أن أتبع قواد الخنا ، ومايخل بالكرامة من كل منقص ، قل أو أكثر ، عظم جرمه أو حقر ، بفضل ما أبقاه فى قلبى وبثه فى روحى ودمى عقلى الراجح ، وحلمى الذى عودنى أن أكون الكريم المتسامح :

فأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

كما أربأ بنفسى أن أكون ذليلا لنكبة دهمت ، ومصيبة ألمت ، أو أن أرخى لها العنان فتزيد فى بهجتها ، أو تغتر فتعجب بنفسها بعد ما قال الله لقارون وقد أعطى كنوز الأرض وجاها وخدما وحشما (ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) وقول ذى الأصبع العدوانى :

وذى ضغن قلمت أظفار ضغنه بحلمى عنه وهو ليس له حلم

لهذا أوطن النفس على سلوك سبل الاعتدال ، وأوقفها عند حد الكمال ، فتوفر وتحمد .

وإلى هنا ينتهى ما علقناه على المقصورة من الشرح الملحق ، وعلنا نكون قد وفقنا لبيان ماهو فى بعض ثناياها مغلق ، وما يجب أن يكتب عليه ويعلق ، خدمة لرواد الأدب والعلم الشريف ، من أخيهم المفتقر إلى دعائهم الصالح عيد بن الوصيف ، الكردى أصلا وأرومة ، المصرى جنسية ، الأزهرى معهدا وتربية ، القرشى حسبا ونسبا .

اللهم انفع بهذا الشرح وأصله من تلقاهما بقبول حسن ، واكفنا وإياه وناشريهما وسائر المسلمين سائر الفتن ، ما ظهر منها ومابطن ، واجعلنا وإياهم من المتقين الذين تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ؟

قال جمال الدين بن الجوزى ملغزاً فى مقصورة ابن دريد :

ما يقول سيدنا إمام أئمة الأمصار * وصدر صدور الأقطار * وجامع مسانيد السير والأخبار * فى عروس جليت في ساحة على بعلين * وزفت فى ليلة إلى محلين * خطباها بظهور السماح * لا بصدور الرماح * وملكاها بحل الصحاح * لا بعقد النكاح * افترعاها فى الملا فلم يكن على أبيها ولا عليها من جناح * وهى من المشهورات فى الأنام * والمقصورات لا فى الخيام * باسقة الفرع ثابتة الأصل * فائزة عند النضال بالفضل * جامعة المناقب والفضائل * ساحبة ذيل البلاغة على سحبان وائل ؟ !

ومما ينسب إلى ابن دريد أيضاً رحمه الله

لا تركنن إلى الهوى واحذر مفارقة الهواء
يوما تسير إلى الثرى ويفوز غيرك بالثراء
كم من حفير فى رجى بئر لمنقطع الرجاء
غطى عليه بالصفا أهل المودة والصفاء
ذهب الفتى عن أهله أين الفتى من الفتاء
زال السنا عن ناظريه وزال عن شرف السناء
ما زال يلتمس الخلا حتى توحد فى الخلاء
قطع النسا منه الزما ن فلم يمتع بالنساء
وأرى العشا فى العين أكثر ما يكون من العشاء
وأرى الخوى يذكى عقو لذوى التفكر فى الخواء
ولرب ممنوع العرى ولسوف ينبذ فى العراء

من خاف من أم الحفا فليجتنب مشى الحفاء
كم من توارى بالنقى بعد النظافة والنقاء
وأخو الغرى من لا يزا ل بما يضر أخا غراء
إن الحياة مع الحيا وأرى البهاء مع الحياء
عقل الكبير من الورى فى الصالحات من الوراء
لو تعلم الشاة البخا منها لجدت فى البخاء
وأرى الدوى طول السقا م فلا تفرط فى الدواء
و إذا سمعت وحى الزما ن فلا تفرط فى الوحاء
فلربما ساق السفا نحو السفى أهل السفاء
يا ابن البرى إن البريـ ـة لا تجيئك بالبراء
وأراك قد حال العمى ما بين عينك والعماء
فانظر لعينك فى الجلا إن خفت من يوم الجلاء
وكل الفنى إن لم تجد حالا فأنت إلى الفناء
فلربما أدى القضا مترو ديه إلى القضاء
فالمرء أشبه بالعفا إن لم يفكر فى العفاء
فارغب لربك فى الجدا ما أنت عنه ذو جداء
وكأنما ريح الصبا تجرى بطلاب الصباء
وكأنهم معز الأبا أو كالحطام من الأباء
وأرى الغنى يدعو الغنى إلى الملاهى والغناء
فاهرب هديت من الذكا إن كنت من أهل الذكاء
سيضيق متسع الفلا بالمخرجين من الفلاء
توصى وعقلك فى بدا فلذاك رأيك فى بداء

باعوا التيقظ بالكرى فعقولهم بذوى كراء
كم من عظام باللوى قد فارقت خفق اللواء
يمضى الأنا بعد الأنا والعمر فى ماء الأناء
ولربما فضح الرجا ل ذوى اللحي كشف الرجاء
ولربما صاد العدى والسيف فى صيد العداء
ولرب مهجور البنا بعد التأنق فى البناء
وسيستوى أهل الكبي وذوى التعطر والكباء
ولرب ماء ذى روى يحتاج فيه إلى رواء